alexandra.ahlamontada.com

منتدى مكتبة الاسكندرية

كونفوشيوس

المعلم الأول للبشرية

صلاح بسيوني رسلان

كونفوشيوس

رائد الفكر الإنساني

alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الأسكندرية

دكتور

صلاح بسيوني رسلان

الفهرس

تصدير ٥
التراث الروحي في الصين ٧
خلق العالم: ٩
عبادة الأرواح والكهانة: ١٣
مصادر الفلسفة الصينية..... ٢٤
الحضارة الصينية في عصرها التاريخي المبكر ٣٧
نشأة النظام الاجتماعي وتطوره: ٣٩
نظام الأسرة:..... ٤٣
التقسيم الطبقي:..... ٤٥
النظام السياسي ٥٠
الأخلاق ٥٤
كونفوشيوس..... ٦٠
حياة كونفوشيوس:..... ٦٢
سمات شخصيته: ٧٦
مؤلفاته (الكتب التسعة):..... ٧٩
التربية والتعليم عند كونفوشيوس..... ٨٦
التربية والتعليم في الصين القديمة: ٨٦
فلسفة كونفشيوس في التربية المثالية والمعلم المثالي: ٩١
الأخلاق عند كونفوشيوس..... ١١٢
إنسانية الأخلاق الكونفوشيوسية: ١١٣

الطبيعة الإنسانية: ١١٦
الـــ (لى LI)= آداب اللياقة أو قواعد السلوك البشري الحميد: . ١٢١
فكرة الـــ (تاو TAO الطريق أو السبيل) ١٢٦
الجن JEN قوام الأخلاق وروح الفضائل:..... ١٢٨
الوسط الذهبي ١٣٢
الطاعة النبوية..... ١٥١
الصداقة..... ١٥٤
الموسيقى ١٥٧
الدين والميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة)..... ١٦٣
السياسة في مذهب كونفوشيوس..... ١٧٦
الربط بين السياسة والأخلاق: ١٧٦
الحكومة الصالحة: ١٨١
أخلاق الحاكم وواجباته: ١٩١
المجتمع الكونفوشيوسي مجتمع طبقي..... ٢٠١
تقويم الأسماء أو التعريف عند كونفوشيوس ٢١٣
تأثيره ومذهبه الإنساني..... ٢٢١
المراجع..... ٢٢٦

تصدير

قبل أن نشرع في تقديم عرض موسَّع لفكر كونفوشيوس الإنساني، يجدر بنا أن نلقي بعض الأضواء على التراث الروحي والفكري في الصين القديمة قبل ظهور كونفوشيوس، خاصة، إذا علمنا أن الفكر الكونفوشيوسي ما هو، في حقيقة أمره، إلا امتداد للفكر السابق عليه.

من هنا آثرنا، قبل أن نعرض لفكر كونفوشيوس الإنساني، أن نحيط القارئ علمًا بتراث الصين الروحي والفكري، والمصادر الحقيقية لهذا التراث، والحضارة التي نشأ وازدهر فيها، ومعالم النظم الحضارية من اجتماعية وأخلاقية وسياسية، التي أبدعتها الصين القديمة.

إن هدف هذا البحث هو إعطاء صورة واضحة عامة للفكر الصيني من جهة، وعرض آراء كونفوشيوس في شيء من التفصيل من جهة أخرى، سواءً في التربية والتعليم، أو في الأخلاق والسياسة، والدين والميتافيزيقا، أو في تقويم الأسماء، حيث تركت شخصيته طابعًا قويًا كان له أثره على الأجيال المتلاحقة.

"يعرف الإمبراطور كيف يحكم إذا كان الشعراء أحرارًا في قرض الشعر، والناس أحرارًا في تمثيل المسرحيات، والمؤرخون أحرارًا في قول الحق، والوزراء أحرارًا في إسداء النصح، والفقراء أحرارًا في التذمر من الضرائب، والطلبة أحرارًا في تعلم العلم جهرة، والعمال أحرارًا في مدح مهارتهم في السعي إلى العمل، والشعب حرًا في أن يتحدث عن كل شيء، والشيوخ أحرارًا في تخطئة كل شيء ".

" من خطبة ألقاها دوق جو
بين يدي الملك لي – واتج
حوالي عام ٨٤٥ ق. م "

التراث الروحي في الصين

يتميز الصينيون بأنهم شعب ذو ثقافة عامة موحَّـدة، وبأن مدنيتهم تعد من أقدم المدنيات القائمة في العالم وأغناها في التاريخ. فكانوا يعتبرون العلماء مـنهم – لا الجنـود – أبطالهم المفضلين. وقد تكاملت مدينة الصـين فـي عصـر مبكر، وعلى عكس المدنيات القديمة العظيمة الأخـرى لـم يصبها الانهيار في يوم من الأيام، ولكنها استمرت في تقدمها تتناوب عليها فترات تختلف في مدى نجاحهـا منـذ وقـت ظهورها. وفي عهد كونفوشيوس- الذي ظهر فـي القـرن السادس قبل الميلاد – كانوا يفخرون بثقافة يرجع تاريخهـا إلى عشرين قرنًا قبل المسيح، استطاعت أن تحفـظ الكيـان الخلقي لهذه البلاد مدى أربعة آلاف سـنة، بـل إن احتفـاظ الصين باستقلالها إلى الآن يرجع إلى تمسِّـكها بـالأخلاق العالية المسجلة في فلسفتها، والمدونة فـي ثقافتهـا العميقـة المبتدعة.

وقد دفعت الأخلاق الصـينية السـامية المبشِّـرين المسيحيين الذين اتصلوا بالصينيين في القرن التاسع عشر، فيما يروي ذلك الأستاذ " زانكير "، إلى أن يعلنوا أن الإله قد

أوحى إلى الصينيين كما أوحى إلى الإسرائيليين، وأن " شانج – لي " ليس إلا الرب السماوي المذكور في الكتاب العبري المقدس، بل إن أحد اليسوعيين، في القرن التاسع عشر اشتغل بجمع بعض النصوص الصينية، ليثبت منها هذا الوحي الإلهي، وأن عددًا كبيرًا من القسس والعلماء قد حاولوا أن يربطوا بين التوارة وبين الكتب الصينية تارة في الأخلاق، وتارة في أصول العقيدة، وثالثة في اللغة [١].

إن ما يميز العقلية الصينية عن غيرها من عقليات الأمم الأخرى هو سرعة تحوُّل النظريات إلى أخلاق عامة في الشعب كله، ولهذا قال أحد الباحثين، وهو " سوزوكي " ما نصه: " إذا كان الدين ممثلا في اليهود، والتنسك في الهنود، والتفلسف في الإغريق، فإن الأخلاق هي الثقافة الروحية التي التقت في إمبراطورية الوسط – ويقصد بها هنا الصين – بممثليها الحقيقيين، وبنموها المنظم المحدود " [٢]

---

(١) v.zenker: Histoire de la phiosophie chinoise, traducation par G.Lepage – Paris ١٩٣٢ P.١٦

(٢) انظر سوزوكي: تاريخ الفلسفة الصينية القديمة، طبعة لندن سنة ١٩١٤ ص ٤٧

أحاط الصينيون، منذ عدة آلاف من السنين بـــالكثير من العلوم والفنون والمعارف، فعرفـــوا الرياضـــة والفلـــك والجغرافيا والتاريخ والأدب ونقد النصوص وعلم اللغـــات، وبرعوا في صناعة الخـــزف والـــنقش ورواســـم الطباعـــة (كليشهات) المصنوعة من الخشب، واخترعوا البوصلة، كما عرفوا الورق والحرير والطلاءات الثابتة، وبرزوا في كـــل هذا على أوربا قبل القرن السادس عشر. أضف إلى ما سبق وجود سجل لهم حافل بالفلسفة الواقعية المثالية العميقة غيـــر المعجزة الدرك. ومن هنا فقد قال فيهم (ديدرو): " أولئك قوم يفوقون كل من عداهم من الآسيويين في قدم عهدهم، وفـــي فنونهم، وعقليتهم، وحكمتهم، وحسن سياستهم، وفي تـــذوقهم للفلسفة، بل إنهم في رأي بعض المؤلفين ليضارعون في هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوربية وأعظمها استنارة "[١].

خلق العالم:

يصف مؤرخو الصـــين الرســـميون خلـــق العـــالم، فيقولون إنه في البدء كان العماء أو العدم، أي لم يكن هنـــاك

---

(١) Gowen and hall: Outline History of china, ٥٠

شيء على الإطلاق. واستمر ذلك وقتًا طويلاً، ثم ظهر شيء، ومن هذا الشيء كان خلق " بان كو " أول الخلائق في العالم.

وقد استطاع " بان كو " – الذي تميز بالقوة الفائقة، وكان له رأس تنين، وجسد أفعى – أن يشكل العالم حوالي عام ٢,٢٢٩,٠٠٠ قبل الميلاد بعد أن ظل يكدح في عمله هذا ثمانية عشر ألف عام. وعندما مات تجمعت أنفاسه التي كان يخرجها في أثناء عمله فكانت رياحًا وسحبًا، وأضحى صوته رعدًا، وصارت عروقه أنهارًا، واستحال لحمه أرضًا، وشعره نبتًا وشجرًا، وعظمه معادن، وعرقه مطرًا، ورأسه الجبال، وأصبحت عينه اليسرى الشمس، وعينه اليمنى القمر. أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه فأصبحت آدميين [١].

وهكذا تمت قصة الخلق، حسب رواية الأساطير الصينية، ثم تعاقب على الأرض ملوك سماويون حكم كل منهم ثمانية عشر ألف عام. وإنهم جاهدوا أشق الجهاد ليجعلوا من قمل " بان كو " خلائق متحضرين، بعد أن كانوا كالوحوش الضارية، تسعى وراء الصيد في الغابة، يلبسون

---

(١) انظر: Gowen and Hall: ٢٦ –٧

الجلود، ويقتاتون باللحوم النيئة، ويعرفون أمهاتهم، ولكنهم لا يعرفون آباءهم..

ومن هؤلاء الملوك السماويين الذين علَّموا الناس كيف يعيشون معًا في سلام، الإمبراطور " فوشي " في عام ٢٨٥٢ ق. م بالتحديد، والإمبراطور (سن نونج) والإمبراطور (هوانج – دي) من بعدهما ثم الإمبراطور العادل الصالح (يو). وقد عمل هؤلاء جميعًا على إدخال الزارعة إلى البلاد، وتأنيس الحيوان، واختراع المحراث الخشبي، وإنشاء علم الطب، وإشادة الأبنية من الآجر، وإقامة المراصد لدراسة النجوم وإصلاح التقاويم. ومنذ هذا الوقت احتفظت الصين بإنجازات حضارتها الفريدة، كما احتفظت أيضا باستمرار التقاليد استمرارًا لا نظير له في أي حضارة أخرى.

لقد تطورت الصين بنفسها، وساعدتها على ذلك، ولو جزئيًا على الأقل، عزلتها الجغرافية عند النهاية الشرقية القصوى (في الطرف الشرقي الأقصى) من العالم الأوربي الآسيوي القديم، تحيط بها جبال وصحراء ولا تمر بها أية

طرق للتجارة [1]ومعنى هذا أن الظروف الطبيعية والعوامل الجغرافية كان لها دور كبير في احتفاظ الحضارة الصينية بصفاتها المميزة، إذ تظل الصين، وكما سبق أن أشرنا، على الشرق، ويحدها في الجنوب وفي الغرب جبال يصعب اجتيازها، إلى جانب صعوبة المواصلات في تلك المناطق. وفي الشمال الغربي نجد السهول القاحلة، كما تمتد – في الشمال– الغابة القطبية الكبيرة في منشوريا. ولم يوجد في المناطق الواقعة على حدودها أي منطقة على مستوى مدني أو حضاري متقدم. ومن هنا فقد عدّ الصينيون أنفسهم، على نحو ما فعل الإغريق، جزيرة من المدنية والثقافة وسط بحر من التوحش والهمجية.

ازدهرت في الحضارة الصينية، التي استمرت عدة آلاف من السنين، عبادات ونحل كثيرة، واستوعبت التجربة الصينية، من حيث الأفكار الدينية والفلسفية، مشاعر

---

(١) انظر: جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم ١٧٣ سنة ١٤١٣ هـ– ١٩٩٣م صـ ٢٦٧.

وتطلعات الجنس البشري كله، ولكنها عبَّرت عنها باستمرار بطريقتها الخاصة.

عبادة الأرواح والكهانة:

اشتملت العقيدة الصينية، منذ أقدم العصور، على عناصر مختلفة وأساطير شعبية متباينة. فقد اعتقد الصينيون، شأنهم في هذا شأن غيرهم من شعوب بلاد العالم الأخرى، بخضوع الظواهر الطبيعية والأوضاع البشرية لسيطرة القوى الخارقة للطبيعة، ومن هنا كانت عبادتهم لهذه القوى الغامضة والأرواح الخفية الكامنة في جميع الأنحاء والتي كانوا يشاهدون آثارها دون أن يدركوا حقيقتها. وقد تألفت هذه الأرواح المعبودة من نوعين: أرواح الموتى من آباء وأجداد، وكذلك أرواح كبار الحكماء والأبطال الوطنيين. وأرواح القوى الطبيعية مثل الشمس والقمر والكواكب والمطر والريح والرعد.

وتنقسم هذه الأرواح، ذات الأهمية الخاصة، بنوعيها من حيث المكان إلى قسمين: الأرواح السماوية، وهي جميع الكواكب والنجوم، والأرواح الأرضية مثل الأنهار والأشجار

والجبال والتلال والأفاعي وكذلك أرواح الموتى من الآبـــاء والأجداد تندرج في هذا القسم الثاني.

ومعنى هذا أن أرواح الموتى كانت تعبد إلى جانب آلهة الطبيعة مثل التلال والأنهار وغيرها. ولم يكن الموتى وحدهم هم الذين يسألون عن الهداية والإرشاد في مسائل السلوك، بل كان يتوسل إلى قوتهم الداخلية (مانا Mana) حتى تكفـــل خصوبة الرجال والنساء والمحاصيل والحيوانات [1].

آمن الصينيون، ولا يزالون حتى اليوم يؤمنون، بأن هناك أرواحًا خيرة تسهر على فصول السنة، وعلى النشـــاط الزراعي وعلى حماية المنـــازل ورعايـــة أفـــراد الأســـر. ولمَّا كانت هذه الأرواح بنوعيها، السماوي والأرضي هـــي التي تحكم الكون، وتسير كل حركاته، وتسبغ على البشرية السعادة، كما أن في استطاعتها أن تتلقى القرابين، وأن تندمج في الكائنات البشرية، فقد حرص الصينيون على أن يـــردوا عداوة هذه القوى والأرواح الخفيـــة، وأن يســـتعينوا عليهـــا بالأدعية والرقى السحرية، فراحـــوا يســـتأجرون الســـحرة والعرافين والمتنبئين من ذوي المواهب ليكشفوا لهـــم عـــن

---

(١) انظر: جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٢٧١

المستقبل باستخدام أصداف السلاحف، وملاحظة الظواهر الطبيعية كحركات النجوم مثلاً، وهؤلاء هم الكهان.

إننا إذا ألقينا نظرة على القسم المسمى " الفكرة العظمى " في " كتاب التاريخ " لظهر لنا أن حكام أسرة شانج Shang (١٧٦٥ – ١١٢٣ ق. م) – وهي الأسرة التي يبتدئ بها التاريخ المسجل للصين والتي استمر حكمها من القرن السادس عشر حتى القرن الحادي عشر قبل الميلاد– كانوا يهتمون اهتمامًا كبيرًا بالتنجيم، وهو أهم أقسام الكهانة، وأنهم مارسوه بطرق متعددة. ومن بين تلك الطرق [1] أنهم كانوا يعرِّضون قطعة من ذيل غطاء السلحفاة للحرارة، ويجيبون على سؤال السائل من دراسة التشققات التي تظهر فيها. وفي طريقة أخرى كانوا يحفرون عددًا من الحفرات البيضاوية الصغيرة في أحد جوانب قطعة من العظم، وكانت في العادة من عظم كتف شاه، ثم يحمون قضيبًا معدنيًا في النار حتى يحمر ويضعونه

---

(١) انظر: رالف لنتون: شجرة الحضارة، دار موفم للنشر، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ١٩٩٠م، ص ٣٠٣ وما بعدها.

في تلك الحفرة، ثم يجيبون على سؤال السائل من تفسيرهم للتشققات التي تظهر على الجانب الآخر لقطعة العظام. وكان التنجيم بواسطة عظام الكتف منتشرًا في المناطق الشمالية من أوراسيا وفي أمريكا، أما التنجيم بوساطة غطاء السلحفاة فيلوح أنه من أصل جنوبي.

وكان حكام شانج يستوردون ويربون السلحفاوات التي يأتون بها من الجنوب حتى تكون عظام غطاءاتها من النوع المطلوب. و في طريقة التنجيم بوساطة عظام الكتف كان المنجمون يحفرون على العظمة نصوص الأسئلة المطلوب الإجابة عليها قبل تعريضها للنار بسبب الاعتقاد بأن الآلهة صماء، وأنها لا تفهم المطالب التي ترفع إليها إلا إذا كانت مدونة كتابة.

وكانت الأسئلة تتعلق قبل أي أمر آخر بشئون القصر الملكي، يسألون عن الأوقات المناسبة لتأدية الشعائر، والنتائج المحتملة للحروب التي يقومون بها وعما ينتظر المحاصيل.. وعلى إحدى العظام نقرأ شيئًا يدعو إلى التسلية ويدلنا على تصرف المنجمين. فقد كان السؤال كما يأتي:

إذا خرج الملك للصيد في التلال الشرقية (في يـــوم كذا) فهل ستسقط الأمطار؟ وإلى جانب التشققات التي دلـــت على الجواب بأنها ستمطر، نجدهم أضـــافوا كتابـــة الجملـــة الآتية: " وقد أمطرت حقًا ".

إن طبيعة الأسئلة المطروحة، في هذا الأمر، تعطينا صورة لمجتمع ينظمه، في كل جانب مـــن جوانـــب الحيـــاة اليومية، التنبؤ بالغيب وتحكمـــه اعتبـــارات الحـــظ الحســـن أو الفأل السيئ، كما تؤكد إيمان قدماء الصينيين بوجود رباط وثيق بين أفعال الأرواح وتصرفات البشر، وتأثير متبادل بين الأشياء في الكون والشئون البشرية؛ ممـــا أوجـــب علـــيهم الاستعانة بكافة ضروب الكهانة.

وتقسم المراجع الصينية فنون الكهانة ستة أقسام:

الأول: التنجيم – ويعتبر أهمها.

الثاني: التقويم– والغاية منه تعيين الفصول الأربعـــة بغيـــة ضبط أوقات الاعتـــدالين والانقلابـــين، وملاحظـــة موافقة فترات الشمس والقمر والكواكـــب الخمســـة لتتيسر دراسة أحوال البرد والحر، والحياة والموت.

الثالث: يتصل بالعناصر الخمسة: التراب، الخشب، المعدن، النار، الماء.

الرابع: يتعلق بأوراق نبات العرافة وصدفة السلحفاة. ويقصد بنبات العرافة " زهرة القنديل " وتمتاز بكثرة أوراقها. فكان طالب معرفة حظه يقطع أوراق الزهرة ورقة ورقة، وفي الورقة الأخيرة يتمثل الرد على رغبته. أما بالنسبة لصدفة السلحفاة، فكان العراف يثقب حفرة فيها، وبتعريضها للحرارة، تظهر عدة شروخ يفسرها العراف على أنها إجابة عن سؤاله.

الخامس: يتضمن الأحلام.

السادس: يتألف من طريقة الأشكال. ومدارها قياس وإحصاء عظام الناس والحيوانات المستأنسة الستة: الحصان، الثور، الخنزير، الغنم، الكلب، الدجاج. وكانت هذه الطريقة تستخدم عند بناء سور مدينة، أو منزل، أو كوخ [1].

---

(١) فؤاد محمد شبل: حكمة الصين، دار المعارف بمصر، الجزء الأول، ص ٣٢.

وإذا كان الصينيون قد غـــالوا فـــي تقـــديس أرواح الأجداد إلى حد لم يعرف له نظير عند الأمم الغابرة، فـــإنهم من ناحية أخرى قد أغرقوا في عبادة الأرض وتقديسها حتى كانوا يطلقون عليها اسم " القوة المحسنة التي تتسلم البـــذور لتردها ثمارًا مضاعفة " وذلك بالنظر إلـــى كـــون الشـــعب الصيني شعبًا زراعيًا في المرتبة الأولى، وكانت الحاصلات الصينية وطرق الزارعة، على الأرجح، أحسن شـــيء مـــن نوعها في العالم، فضلاً عـــن أن الصـــينيين قـــد وضـــعوا الاستغلال والاستنبات في المنزلة الأولى في الحياة.

على أنه برغم ذلك كله آمن الصينيون بوجود حـــاكم أعلى، له كل السلطان على الأرض وما فيها، هـــو الســـماء أو (شانج – تي Chang – Ti)، سيد كل الآلهـــة. لقـــد رأى الصينيون في السماء وحدها السلطان الأعلى الـــلا محـــدود القوة، إذ تمسك بيدها الكون بأسره، وتقضي بتعاقب الفصول في مواقيتها، وتأمر بدورة الموت والتجدد، وتكفل خصـــوبة الرجال والنساء والحيوانات والمحاصيل [1]، وحتـــى قـــوس قزح الذي يظهر بعد سقوط المطر، يبدو هـــو الآخـــر فـــي

---

(١) انظر: جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٢٧٢.

السماء. وكان الصينيون يعتقدون أن السماء نفسها كائن حي متحرك بالإرادة، وأن الأرض وجميع ما عليها من: خصوبة وتناسل ومظاهر أخرى ليست إلا رمزًا تمثيليًا من رموز السماء ومظهرًا لها، بحيث يستحيل تصور فصلها عنها، كما تستحيل تثنيتهما في الحقيقة؛ لأن كل واحدة منهما هي الأخرى، وهي أصل جميع الموجودات في نفس الوقت، وهذا كله يؤكد اعتقاد الصينيين بالوحدة المطلقة أو مذهب وحدة الوجود بما يدل على سموهم الفكري. ومذهب الصينيين هذا في الوحدة يخالف ما كانت عليه بعض الشعوب الأخرى من حيث الاعتقاد بأن الكائنات ظهرت في الوجود الخارجي وتناسلت من زواج السماء مع الأرض.

ويصرح الصينيون بأن جميع الموجودات قد نشأت نتيجة حركات الوحدة المطلقة بمعنى أن هذه الوحدة هي مردها ومرجعها من غير استثناء، وأنها (أي الموجودات حية كانت أو جامدة) نتائج التغير والتحول الدائمين والناشئين من الحركة. وبهذا سبق الصينيون في رؤيتهم الفلسفية هذه الفلاسفة اليونان وعلى رأسهم (هيراقليطس) من حيث اعتبار الحركة والتغير المستمرين هما الجوهر الأقوى للوجود.

ولم يكن الكون الأوحد المؤلف، عند الصينيين، من السماء والأرض ماديًا محضًا وإنما كان طبيعيًا أي مادة مشتملة على روح، وأن الجانب الروحي له الدور الأكبر في احتفاظ الجانب المادي في الطبيعة بنظامه كاملاً متناسقًا. ويحتل الإنسان في هذا الكون الأوحد أو الوحدة الكونية مكانًا متميزًا بالنظر إلى اشتماله على الروح من بين جميع الكائنات. وقد ورد في أحد كتبهم القديمة:

" إن السماء والأرض هما أبو الكائنات جميعها، وإن الإنسان من بين جميع الكائنات هو وحده الموهوب حقًا ".

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن عبادة السماء أو (شانج – تي) لم تكن من العبادات الشائعة بين العامة، بل هي من العبادات الخاصة التي كانت وقفًا على الحكماء والملوك وخاصة الأمراء وعلماء كبار رجال الدولة، ولا يجوز بأي حال كشف أسرارها أمام العامة البسطاء التي تنحصر عقيدتهم الساذجة في عبادة الأجداد وغيرهم من الموتى. لقد اشتملت عبادة السماء أو هذه العقيدة الخاصة، إلى جانب القيام بالطقوس الدينية، على التفكير العميق حول الكائن الحي وموقعه من الكون، وعلى تحليلات للقوى

الطبيعية التي كانوا يشاهدون آثارها سواءً في السماء أو في الأرض، ومن هنا كان من الواجب تحريم هذه العقيدة على العامة تحريمًا قاسيًا حتى لا يساء فهمها، وهذا هو مضمون فكرة " المضنون به على غير أهله ": وفي هذا يقول أحد حكماء الصين وهو (لاو – تسو):

" كما أنه من غير الممكن إبعاد الأسماك عن الماء دون أن تموت، كذلك من المستحيل أن تكشف أسرار الدولة أمام العامة دون أن تفسد الحال ".

وتشير كلمة " السماء " في التراث الصيني إلى معانٍ مختلفة منها المادي، أي ما يقابل الأرض، والمعنوي المتضمن معنى السمو والرفعة وتسامي الشأن كقولنا (الإمبراطور العلوي)، والديني الذي يشير إلى معنى القضاء والقدر، والوجود الطبيعي، والأخلاقي الذي يدل على مبدأ راقٍ سامٍ في علوه وارتفاعه إلى عنان السماء.

وقد تطور التفكير الصيني، بمرور الأيام، وأخذ يتحرر تدريجيًا من إسار العرافة والكهانة، وقيود السحر والأرواح، وهذا ما نطالعه في الأحداث الصينية [1]:

---

(١) فؤاد محمد شبل: حكمة الصين ٣٣/١

١- ذكرت السجلات- تحت أحداث عام ٦٦٢ قبل الميلاد- أن أمور الدولة تزدهر وقتما ينصت الحكام إلى صوت الشعب، فإذا استمعوا إلى الأرواح فسدت الأمور.

٢- وتحت عام ٥٥٤ قبل الميلاد، قالت: " طريق السماء طويل، في حين أن طريق الإنسان قريب المنال لكن لن يمكننا بلوغ السماء، إذ لا سبيل إليها ".

٣- وتحت عام ٥٠٩ قبل الميلاد، ذكرت أن مملكة " هسيه " تلجأ إلى الشعب، في حين تستعين مملكة " سونج " بالأرواح. وعلَّقت على ذلك بقولها: " إن إساءة مملكة سونج بالغة ".

مصادر الفلسفة الصينية

الكتب الإنسانية القديمة

يتألف الفكر الصيني – قبل عهد كونفوشيوس – من خمسة كتب إنسانية تسمى: "وو – كينج " استخدمها حكيم الصين الأول لتعليم مريديه وتثقيفهم الثقافة الإنسانية المتوازنة، وهي: الأغاني – التاريخ – الطقوس – حوليات الربيع والخريف – التغيرات. يُضاف إلى هذه المؤلفات الخمسة، التقاليد والعادات الدينية التي ظلت– بفضل العزلة – كما كانت منذ آلاف السنين، مما يعطينا صورة أمينة لما كان عليه التراث الصيني منذ أقدم العصور.

ولكل مؤلف من هذه المؤلفات وظيفته، فيما يرى ذلك حكماء الصين: فالأغاني تصف الدوافع، وتضمن الموسيقى التناسق، ويوضح التاريخ الوقائع والأحداث، وتبحث الطقوس في أنماط السلوك، وتضم الحوليات أسمى أنواع الفضائل والخيرات وتظهر الواجبات التي نهض بها حكماء الصين فيما قبل التاريخ، ويكشف كتاب التغيرات النقاب عن الحياة الفكرية وتراث هذه الأمة العريق.

١) كتاب التاريخ (شو – تشنج *hu – Ching*):

يتفرَّد الصينيون بالعقلية التاريخية، وما خلَّفوه من كتابات تتعلق بأحداث الماضي شيء كثير. وتقوم المعلومات الحضارية التي ورد ذكرها في كتب التاريخ الصيني، دون أي شك، على أساس سليم صحيح.

ويتألف كتاب التاريخ من عدد من البلاغات والتوجيهات والأحاديث المهمة والخطب التي ألقاها الحكام والحكماء. ومن قبيل ذلك: إلقاء خطاب على الجنود قبيل خوض المعركة، أو على شعب مهزوم عقب اندحاره عسكريًا، أو خطاب موجَّه إلى سكان مدينة بنيت حديثًا، أو كتاب استقالة وزير من منصبه [١] .

ويستمد الكاتب أهميته من احتوائه على أقدم الوثائق التاريخية الصينية، وعلى منابع الحكمة.

وقد عكف كونفوشيوس على دراسة التاريخ، وكان يقول عن نفسه إنه ناقل أكثر منه مبدعًا ،وتأثر، بفضل

---

(١) انظر: المصدر السابق ٣٤/١ وما بعدها، وول ديوارنت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، القاهرة، ٤٩/٤ – ٥٠

اطلاعه على كتاب التاريخ، بمنابع الحكمة التى احتوى عليها، واستمد منها آراءه.

٢) كتاب الأغاني(أو الأناشيد): (شي – تشنج Shi – Ching):

مختارات تتألف من حوالي ثلاثمائة بيت من الشعر، بعضها عبارة عن أغانٍ شعبية كانت شائعة في جهات الصين المختلفة إبان عهدها الإقطاعي، وبعضها الآخر عبارة عن أغانٍ كان ينشدها أعضاء الطبقة الأرستقراطية خلال تأدية شعائر القرابين أو في ولائمهم أو غير ذلك من المناسبات.

ويرجع العهد بهذه المختارات إلى أوائل عصر أسرة (تشو) التي حكمت الصين ابتداءً من القرن الحادي عشر قبل الميلاد، كما يرجع عهد بعض هذه الأغاني إلى أوائل عصر أسرة (شانج) التي استمر حكمها للصين من القرن السادس عشر حتى القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

وقد عمل كونفوشيوس بنفسه على اختيار هذه الأشعار والأناشيد وتنقيحها وإعدادها للنشر، وتدور موضوعاتها حول شكاوى الفلاحين من اضطهاد الحكومات

الفاسدة لهم، ومن ظلم جباة الضرائب. وهاك مقتطفًا من كتاب الأغاني: فأر ضخم

(شكوى فلاحين من جباة الضرائب)

فأر ضخم، فأر ضخم
لا تأكل أذرتي
ثلاث سنوات أتولى خدمتك
لكنك لن تقيم لي وزنًا
إنني أعتزم تركك
متجهًا إلى تلك الأرض السعيدة
أرض سعيدة، أرض سعيدة
حيث سأجد مكانًا
فأر ضخم، فار ضخم
لا تأكل زرعي
ثلاث سنوات أتولى خدمتك
ولم تتحِ لي راحة
إنني أعتزم تركك
وسأذهب إلى تلك الحقول السعيدة
فليس هناك من يئن ويتأوه

٣) كتاب الطقوس (لي – تشي Li – Chi):

تتناول مجموعة النصوص، التي يضمها هذا الكتاب، بالبحث مجالاً واسعًا من الموضوعات، منها الفكرية العميقة، ومنها أنماط السلوك في الحياة اليومية.

وقد تولى كونفوشيوس تصنيف هذه النصوص وإعدادها للنشر. ويلحق بكتاب الطقوس كتاب خاص بالموسيقى.

٤) حوليات الربيع والخريف (تشون – شيو Chun – Chiu)

تتضمن سجلاً مختصرًا لأحداث مملكة (لو) موطن رأس كونفوشيوس، خلال الفترة ٧٢٢ – ٤٨١ ق. م.

وقد تولى كونفوشيوس نفسه جمع الحوليات من سجلات كانت في محفوظات مملكة (لو) وتظهر الحوليات الواجبات والصفات المميزة التي ينبغي أن يتصف بها الحكام بغية إقامة مجتمع العدل والسلام، ويغلب عليها الغموض والاختصار، ومن هنا تعددت الشروحات والتعليقات عليها من جانب الكُتَّاب الصينيين.

٥) كتاب التغيرات (آي – تشنج I – Ching):

يُعَدُّ كتاب التغيرات أهم الكتب الصينية التي يبدأ بها تاريخ التفكير الصيني المدون، ويعرف الكتاب باسم (آي – تشنج I – Ching)، ومنشأ الاسم راجع إلى احتوائه على كثير من التطورات الفكرية المختلفة، ويجسد الكتاب، بحق، جوهر الثقافة الصينية، وحكمتها الثمينة. أما نصوصه، فقد أثبت العلماء أن بعضها يرجع إلى القرن الثاني عشر قبل المسيح، وتنسب التقاليد الصينية المأثورة تأليف الكتاب إلى الملك الحكيم (فيوهسي) البطل الثقافي الأسطوري، وذلك في عام ٣٣٢٢ قبل الميلاد، وإذا كنا لا نعرف على وجه الدقة كم عمر الكتاب، إلا أننا نعرف أنه قد تداولته أيدي جيل بعد جيل، وأن فكرته موغلة في القدم، وأنه يحظى بتقديس الصينيين له.

وكان لكونفوشيوس الفضل الكبير في نشر كتاب التغيرات، وتجميله بما علَّق عليه من الحواشي، وكان يتمنى أن يعتزل المجتمع خمسين عامًا يقضيها في دراسته. ويغلب على الكتاب الغموض الفائق، وأقواله خفية المعنى، ملتوية المغزى.

ويتحدث الكتاب عن أصل الأشياء الصينية، وأن نظام هذا الكون وضعه حكام العصور القديمة الأسطوريون، وأن هؤلاء الحكام، الذين يشبهون الآلهة، بدءوا أولاً بوضع الأمور الضرورية لتقوية وحفظ نظام الكون، وبعد أن أتموا ذلك استخدموا مواهبهم في اختراع الأجهزة النافعة للناس.

ولما كان الكتاب – في الأصل – سجلاً للعرافة والكهانة، وغرضه الأساسي تنجيميّا، فإنه يشير إلى الاختراعات السحرية الأولى، وأن من أوائل الأشياء التي اخترعها أحد أنصاف الآلهة الأزليين تلك العلامات السداسية وعددها أربعة وستون، وهي أشكال – مقتبسة في الأصل من الأشكال التي تنشأ عن حرق صدفة السلحفاة – تتكون من خطوط متوازية بعضها متصل، والبعض متقطع، ومرتبة في اتجاهات مختلفة ولكل شكل من هذه الأشكال الأربعة والستين معنى مختلف عن الآخر، ولكل واحد منها معنى سحري. واستخدموا هذه الأشكال – ومازالوا يستخدمونها حتى الآن – في الإنباء بالغيب ومعرفة الطوالع وذلك لمعرفة ما إذا كانت الظروف ملائمة للقيام بأي نشاط أم أنها غير ملائمة. فعلى

سبيل المثال أصبحت الجيوش تستخدمها في المعارك، ويعتمد عليها الحكام في رسم سياساتهم، ويستعين بها الأفراد في توجيه شئونهم الخاصة [1].

ويذكر كتاب التغيرات أن الأباطرة الأوائل توصَّلوا إلى اختراع الأشياء المفيدة عن طريق التأمل في هذه الأشكال، بل اتجه العلماء أنفسهم إلى الاستعانة بهذه الأشكال ورموزها في دراساتهم فأصبحت عماد الفكر الصيني حتى وقتنا الحاضر سواءً في مجال الأخلاق والسياسة والاقتصاد والأدب والاجتماع أو في مجال العلوم الطبيعية كالطب والكيمياء والفلك.. إلخ.

ويتم الخلق في الواقع عن طريق عاملين تتألف منهما ظواهر الكون بأسره هما: (ين Yin) و (يانج Yang). ومعنى يانج الحرفي هو الضوء أو الشمس، أما ين، فيعني الظل أو القمر. واليانج إيجابي، و الين سلبي الأول ذكر والثاني أنثى. ومعنى هذا أن اليانج يمثل في هذه الثنائية الرمزية – كما يشير إلى ذلك كتاب التغيرات – العنصر الإيجابي الفعال، المنتج، السماوي، عنصر الضوء والحرارة

---

(١) انظر: لنتون: شجرة الحضارة، ٣/٢٩٥ – ٢٩٦

والحياة، والسماء هنا ترمز إلى الأب رمز القوة والسيادة. على حين أن الين يمثل العنصر السلبي، المنفعل، الأرضي، عنصر الظلمة والبرودة والموت. والأرض هنا هي الأم التي تتلقى الأمطار، وتدل على الحنان، والعطف، والمودة، توكيدًا لمبدأ الأنوثة المطلق [1] .

فعن طرق الاتحاد، إذن بين السماء والأرض،أو بين الأب والأم، أو بين عاملي الذكورة والأنوثة تنشأ الموجودات في هذا الكون الفسيح. فثنائية اليانج والين ثنائية تكاملية، يكمل أحدهما الآخر، وبفضل هذا التكامل يتوافر للكون انسجامه وتناسقه، وهذا مما يخالف الثنائية المألوفة خارج الصين، ونعني بها ثنائية الروح والمادة، الخير والشر، القلب والعقل، الحركة والثبات، الصواب والخطأ، وهي ثنائية تضادية، ينفصل أحد شقيها عن الآخر، ويباينه تمامًا.

أما اليانج والين، كما يوضح كتاب التغيرات، فإنهما مترابطان متكاملان ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

---

(١) انظر: ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، طبع ونشر لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، الجزء الرابع، ص ٢٧.

ويلفت نظرنا هذا الاختلاف الواضح بين مفهوم التغير عن الصينيين ومفهومه عند هيراقليطس الأفسوسي. فنظرية هيراقليطس تُفهَم على أنها فلسفة التغير الدائم للأشياء، وينسب إليه أفلاطون، في محاورة (كراتيل)، عبارة: (كل شيء يجري Panta rehi)، ولكن إذا كان الكُتَّاب والفلاسفة اليونان القدامى، قد أعلنوا أن كل شيء يتحرك ويتغير، إلا أن هيراقليطس انماز بأنه صاغ بشجاعة عام ٥٠٠ قبل الميلاد، وهو نفس العام الذي اتخذ فيه كتاب التغيرات شكله الحالي وبشكل بالغ الحزم مسألة الحركة والتغير في كل الأشياء حتى النهاية.

وإذا كان هيراقليطس قد اعتقد بأن الحياة حركة تتكشف من خلال صراع " الأضداد " وآمن بانسجام نظام الكون بفعل " اللوجوس " – الكلمة أو الله – الذي يشكل الهيولي (مادة الكون الأولى قبل تكوينه)، إذ إن "اللوجوس" هو الذي يحدد الثبات والاعتدال والتناسب والانتظام في كل ما يجري في العالم، لأنه في نهاية الأمر هو العقل الكوني المنظم للكون. فإننا نجد، في مقابل هذا، أن الصينيين قد آمنوا بوحدة مبدئي" الحركة " و " القانون الثابت " الذي

يتحكم فيها ويسيطر عليها، عكس هيراقيلطس ومن نهج نهجه. فالقلب والعقل، جزءان في وحدة واحدة، يعملان معًا، ولا يمكن لهما أن ينفصما. ومثل هذا يمكن أن يقال عن السكون، إذ إنه عند حكماء الصين، ليس نقيضًا للتغير، بل يعتبر السكون والحركة واجهتين للتغير. وإذا كان التغير، وفقًا للمفهوم الصيني، هو مبدع جميع الموجودات، فإن " اللوجوس " عند هيراقليطس، هو القوة المحركة لكل تغير في الأشياء، " فكل شيء يجري بالتوافق مع هذا اللوجوس ".

ويرجع أساس الفهم الصيني للتغير إلى الملاحظة الواعية للظواهر الطبيعية وأحداثها مثل: سير الشمس والنجوم، تعاقب الليل والنهار، تتابع الفصول.. إلخ. ويروى عن كونفوشيوس أنه كان يقف ذات يوم، إلى جوار نهر متدفق، فصاح قائلا: " كل شئ يتدفق على الدوام ليل نهار كهذا النهر".

وإذا كانت حركة التغير عند هيراقليطس تتجه إلى الأمام، فإن نفس الحركة، وفقًا للمنطق الصيني، تتجه اتجاهًا دائريًا شبيهًا باللولب، فهي ترجع إلى نقطة بدايتها،

بما يحفظها من التشتت والضياع، الذي تتعرض له الحركة ذات البعد.

وتؤكد فكرة إمكان التأثير في التغير، التي اشتمل عليها كتاب التغيرات، عظم المكانة التي يحتلها الإنسان في الكون، فقد أصبح هذا الإنسان مركز الكون، ومحور أحداثه، وبإمكانه أن يقف ندًا لقواه: السماوية والأرضية. ويتم هذا التأثير بمسايرة التغير ومجاراته، لا بمقاومته والوقوف ضده. فإذا كانت البذرة تنمو تلقائيًا بفضل التغير، إلا أن في إمكان الإنسان، تاج الخليقة ومركز الأحداث، التدخل في عملية التغير عن طريق قيامه بزارعة البذرة.

وإذا كان الفليسوف الألماني (فردريك هيجل ١٧٧٠ – ١٨٣١ م) سوف يلحظ في العصر الحديث أن الناس دائمًا يكرهون التغيرات والتطورات المفاجئة؛ لأنها بالنسبة إليهم تعد مآسي للجنس البشري، حتى إنه قيل: " ألا ما أسعد الإنسان الذي لا تاريخ له " فإن كتاب التغيرات ينتهي إلى حكمة عملية مفادها أن الرجل العاقل الحكيم، والحاكم الفاضل، على كل منهما أن يهيئ نفسه لاستقبال الأحداث المفاجئة والمخاطر الطارئة التي تفد مع التغير، مع الاحتياط

لتقلبات الزمان وصروفه. وفي هذا يقول أحد حكمائهم وهو (هسي تزو) كلامًا يعد من محاسن الكلم وجوامع الحكم:

" الإنسان الذي يجعل الخطر ماثلاً في ذهنه يحتفظ بمكانته، والذي يرى النكبات قائمة أمام ناظريه يعيش. والذي يعمل حسابًا للفوضى المتفشية، يتمكن من السيطرة على المجتمع. ومن تقدر له السيطرة على المجتمع، يجب ألا ينسى إمكانية تعرض حكمه للاضطراب، فالسلطان الحكيم من لا ينسى العدوان في أوقات السلم والذي يتخذ الحيطة ضد العابثين بالأمن، ويجب أن يتحلى المرء بالتواضع لأن الدنيا إذا أقبلت لا تلبث أن تدبر" .

الحضارة الصينية في عصرها التاريخي المبكر

تدخل الصين عصرها التاريخي الصحيح بابتداء أسرة تشو (١١٢٢ – ٣٥٦ قبل الميلاد) التي خلفت أسرة شانج، وتستكمل الحضارة الصينية معظم طابعها الذي تمتاز به، والذي كان جزء كبير منه موجودًا بالفعل في أيام شانج، ولكن أثناء عهد أسرة تشو تكامل ذلك الطابع [١].

وفي الحقيقة يمكننا القول بأن تشو كانت عهدًا من العهود أكثر منها أسرة حاكمة.

ولم تكن الصين وقتذاك دولة متحدة؛ إذ تألفت من عدة دول متحاربة، متنابذة، تحارب إحداها الأخرى، لكنها دانت جميعها بالاحترام لبيت " تشو "، وتقع عاصمته قرب مدينة " سيان " الحالية بمقاطعة " شنسي " واقتصر سلطان بيت " تشو " على سهل صغير في شمال الصين وحوض

---

(١) انظر: لنتون: شجرة الحضارة، ٣/٣٢١ وما بعدها

النهر الأصفر. وعلى ضفاف هذا النهر ترعرعت الحضـــارة الصينية [1].

ومرت بهذه الأسرة فترة صعبة، وتعرضت لمتاعب فائقة في حكم البلاد، نظرًا لجهلها نظـــم الحكـــم الصـــالحة المتحضرة، فبينما كانوا يجيدون أخـــذ الأراضـــي بالقتـــال، عجزوا عن المحافظة عليها عن طريق حكومة منظمة، ومن هنا بدأ حكم أسرة تشو في التمزق، وكادت هـــذه المتاعـــب تطيح بها، لولا أن أنقذها من الدمار، شخصية عظيمة عرفت في التاريخ الصيني باســـم " دوق تشـــو "، اضـــطلع بـــأمر الجيوش وعاقب كل أولئك الذين حاولوا أن يثوروا، فقضـــى بذلك على أسباب الفتنة، وأقر الأمن والنظام، وأجاد تنظـــيم أمور البلاد تنظيمًا عبقريًا عن طريق حكومة منظمة أحســـن تنظيم.

ويعظم الصينيون " دوق تشو " باعتبـــاره مؤســـس التراث الكونفوشيوسي، بصرف النظر عن أن هذا الدوق قد عاش قبل كونفوشيوس بعدة قرون، بل اعتبره البعض أسمى مرتبة من كونفوشيوس. ففي معترك الأحداث التي جرت في

---

(١) انظر: فؤاد محمد شبل: حكمة الصين، ١/٢٠ وما بعدها.

عهده، تشكلت آراء معينة كانت لها أهميتها الكبرى في التفكير الصيني منذ ذلك الوقت. إن أهم عمل قامت به أسرة تشو هو وضع نظم اجتماعية متكاملة ونظم سياسية ودينية وأخلاقية، استطاعوا في داخل حدودها أن يتمموا وينظموا الأساليب التي كانت موجودة فعلاً في الصين، وقد ساعدهم على ذلك ما كانوا يتمتعون به من عزيمة لا تكل للحصول على القوة، ومن حب شديد للنظام، واحترام عميق للعمل المنظم الدقيق.

نشأة النظام الاجتماعي وتطوره:

سيطرت الأرستقراطية الوراثية على كل مظهر من مظاهر الحياة في الصين، خلال عصر أسرة " تشو ". وقد عد مؤسسو العائلات الأرستقراطية المشهورون أبطالا " أسطوريين "، بل آلهة. والدليل على هذا هو اعتقاد الصينيين بأن ملوك أسرة " تشو " منحدرون من جد أو بطل

أسطوري يدعي " هوتشي Hou Chi " ومعناه الحرفي " ملك أو حاكم الأذرة "، وكان إلهًا للزراعة [1] .

ويروي كتاب الشعر، أحد الكتب الصينية العتيقة، رواية عجيبة عن ولادته الغريبة؛ إذ حملت به أمه عندما تخطت عتبة الإله الأعظم. وبفضل حماية الإله الأعظم له قدر له أن ينجو من عدة مآزق صعبة. ويروي عنه كتاب الشعر، في ذلك أنه:

وضع في درب ضيق،
ولكن الغنم والثيران كانت تحميه في رقة،
ووضع في غابة فسيحة،
ولكن الحطابين وجدوه هناك.
ووضع على ثلج بارد،
ولكن الطيور غطته بأجنحتها.

---

(١) انظر: هـ. ج. كريل: الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي – تونج، ترجمة عبد الحميد سليم ومراجعة علي أدهم، الهيئةالمصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١ م. ص ٢٤ وما بعدها.

ولما بلغ هذا الجد العظيم أشده، صار يعلم الناس كيفية زراعة الحبوب.

واعتقد الصينيون بأن أسلاف الطبقة الأرستقراطية يعيشون، بعد مماتهم، في السماء، حيث يشرفون على مصير ذرياتهم فيمنحونهم النصر في الحرب، والرفاهية والرخاء في السلم، إلا إن سخطوا عليهم. وفي مقابل هذه الأفضال التي ينعم بها الأسلاف على ذرياتهم وأحفادهم، يجب تقديم القرابين إلى أرواحهم وإطاعة رغباتهم إلى أقصى حد عن طريق العرافين والكهان أو أي وسائل أخرى.

وفي مثل هذا الوضع الذي يستمد فيه الأرستقراطيون سلطانهم بفضل قدرة أجدادهم في السماء، لا من أعمالهم وقوتهم على الأرض، لم يكن يأمل أحد من عامة الشعب في أن يصبح حاكمًا صغيرًا أو كبيرًا؛ لافتقاره إلى حدب أجداده الأعلين البارعين ورعايتهم. لقد تألفت غالبية الشعب تقريبًا من الفلاحين والصناع والأرقاء الذين يعملون لدى الأرستقراطيين، ولم تكن لهم حقوق ثابتة تجاههم، بل يبدو أنهم كانوا يعاملونهم كما يروق لهم. وتقول إحدى القصائد في " كتاب الشعر ": " إن عامة الشعب قانعون، ففي كل يوم

عندهم ما يكفي للأكل والشرب ". ولكنهم، في الحقيقة، لم يأكلوا قط ما يكفيهم من طعام، كما يشير إلى ذلك أيضًا نفس الكتاب السابق.

ولما كان ملوك "تشو" غزوا الصين بقوة السلاح، دون اعتماد على مبدأ الأسلاف، ابتدعوا مبدأً جديدًا ييسر لهم حكم البلاد هو مبدأ " القضاء والقدر " Manifest destiny أو مبدأ " توضيح المصير " بمعنى آخر، وهذا المبدأ يبرر لهم غزو البلاد، واعتلاء العرش بدلاً من الحكام الشرعيين، ويسمي حكام تشو هذا المبدأ باسم " قانون السماء " The decree of Heaven، وكانت السماء أعظم الآلهة قدرًا. إن استيلاء حكام تشو، كما يدعون، على ملك " شانج " ألقته السماء على كاهلهم، وجاء تلبية لأمرها.

لقد كان لحكام أسرة " تشو " في ابتكارهم لمبدأ " القضاء والقدر " الذي يبرر الاستيلاء بالقوة على مقاليد السلطة من الحكام الشرعيين، دور كبير في إضعاف نفوذ فكرة الأسلاف التي اعتمد عليها حكم الملوك وسلطان الأرستقراطية الوراثية، كما كان لهم دور كبير في فتح الباب واسعًا أمام كل متمرد على السلطة الحكومية، أو غازٍ

لأراضي الغير، أو متحدٍ لحكم أحد النبلاء، أن يبرر أفعاله باستناده إلى فكرة " أمر السماء ". ومنذ ذلك الوقت وما جاء بعده، كان النمط العادي للثوار هو التمسك بملكية " القرار السماوي ".

نظام الأسرة:

ومن الأفكار التي سادت الحضارة الصينية، واستمرت لها أهميتها في الفكر الصيني فكرة الاهتمام البالغ بالأسرة وتمجيدها، فنقرأ في كتاب الشعر:

من بين جميع الرجال في العالم
لا يوجد ما يعادل الأخوة
إن الإخوة يتعاركون بين الجدران
لكنهم يبقون متحدين ضد إهانة تصدر من الخارج
في حين أن أفضل الأصدقاء
مهما يكن من كثرتهم، لن يقاتلوا من أجلك.

وقد نظر الصينيون إلى الأسرة باعتبارها صورة مصغرة للدولة، الأب فيها هو الحكام، وسلطته مطلقة؛ إذ كان له حق الحياة والموت على جميع أفرادها بدون

استثناء ودون أي اعتراض. وقد كانت الأسرة تشكل بالمثل، وحدة اقتصادية، كل فرد يعمل على إسعاد الجميع، وله مهمته الخاصة التي يجب أن يحققها. وإذا كان مبدأ تعدد الزوجات غير شائع من الناحية النظرية، إلا أننا نلحظ أن العروس من النبلاء عندما كانت تذهب إلى بيت زوجها، كان تصحبها أخت أصغر منها، وبعض الخادمات، ويصبحن كلهن، في نهاية الأمر وبصورة آلية محظيات للزوج. وقد تبوأت المرأة في ذلك الوقت، مركزًا عاليًا، وكان من حقها تعلم القراءة والكتابة، حتى أن الأزواج كثيرًا ما كانوا يستشيرون زوجاتهم حتى في شئون الدولة [1].

إن تقليد طاعة الآباء وإكبارهم، لم يبتدعه كونفوشيوس، كما يظن الكتاب الغربيون، بل له وجود منذ زمن غارق في القدم. ففي فقرة من كتاب الشعر، كتبت منذ أجيال طوال قبل عهد كونفوشيوس تقول:" ليس هناك من تُعنَى به عنايتك بأبيك، ولا إنسان تعتمد عليه كأمك ".

ولم تكن طاعة الآباء والأجداد مجرد عمل أخلاقي أو التزام أدبي، بل كان أيضًا فرضًا شرعيًا وواجبًا قانونيًا.

---

(١) انظر: رالف لنتون: شجرة الحضارة، ٣/٣٢٥.

وكانت إساءة معاملة الأبوين أو جرح قلب أحدهما، وعدم احترام الأخوة الكبار وتحديهم، من الجرائم الخطيرة التي تستوجب العقاب، بدون شفقة.

التقسيم الطبقي:

أما عن التنظيم الداخلي للمجتمع الصيني، فمن الواضح أن هذا المجتمع كان مجتمعًا طبقيًا، وأنه كان يوجد فارق كبير بين النبلاء (الطبقة الأرستقراطية) والعامة. وكان حكم النبلاء هو طابع الحكم الغالب في الصين القديمة. وكانوا يحصلون على إقطاعياتهم من الإمبراطور أو (الملك) مباشرة، لا من النبلاء الآخرين الأسمى منهم. لقد كان النبلاء، في حقيقة الأمر، أصحاب السيطرة السياسية، ومحتكري التعليم، بحكم ما كان في حوزتهم٠ من ثروة مادية.

ويلي النبلاء جماعة من موظفي البلاط والإداريين الذين كانوا يعتمدون اعتمادًا مباشرًا على الملك؛ لأنهم كانوا يحصلون على دخلهم كمرتبات، أو من الضياع التي كان يمنحها لهم. ويلي أولئك الموظفين بورجوازية قليلة العدد من

التجار والصناع المهرة، ثم يأتي الفلاحون في آخر الصف[1].

وكان هناك فاصل واضح المعالم بين النبلاء والعامة. فكان النبلاء وحدهم هم الذين يلتحقون بالمدارس العليا ويتلقون تعليمًا كاملاً في الفنون العقلية الستة الراقية وهي: الشعائر الدينية، الموسيقى، الرماية، قيادة العربات، الرياضيات، والكتابة. أما العامة فقد التحقوا بالمدارس العامة لتلقي التعليم الضروري اللازم لحياتهم اليومية. وقد تميز النبلاء عن العامة، بميزة الحصانة من قانون العقوبات، وفي ذلك يقول أحد أمثالهم التي ترجع إلى ذلك العهد:

" إن الشعائر الدينية لا تنزل إلى مستوى الشعب، كما أن قانون العقوبات لا يرتفع إلى مستوى النبلاء ".

فالنبيل لا يمكن أن يقتل إذا اقترف أي جريمة، ولكن إذا ثبتت إدانته في جريمة كبيرة كانوا يضطرونه لينتحر بيده، وكان الكثيرون منهم ينتحرون بالفعل. أما عامة الشعب، فكانوا معرضين لأن يوقع عليهم قانون عقوبات صارم، سواءً في أشخاصهم أو في ممتلكاتهم.

---

(١) انظر: لنتون: شجرة الحضارة ٣٢٨/٣ وما بعدها.

وفي مقابل ما كان يقدمه عامة الشعب لسادتهم من أعمال السخرة، ودفع الضرائب أوقات السلام، وحمل السلاح وقت الحروب، والتضحية بالحياة في سبيل مصالح سادتهم، كان النبلاء يتعهدون بالدفاع عن رعاياهم وتقديم القرابين نيابة عنهم إلى أرواح الأسلاف والأجداد.

لقد كان في هذه الشرائع محاباة للنبلاء؛ إذ أعفتهم من كثير من الواجبات المفروضة على العامة.

وتحت ضغط الحروب المستمرة التي تعرضت لها الصين، نتيجة الهجمات التي تشنها القبائل غير المتمدنة التي كانت في الشمال الغربي وفي الجنوب، اتجه النبلاء إلى ترك التعليم، والإدارة المدنية، في أيدي جماعة ناشئة من العلماء الموظفين المحترفين. وهكذا أصبح التعليم مباحًا للعامة وحقًا مشروعًا لهم، بعد أن كان وقفًا على طبقة النبلاء. وشهدت المدن الكثيرة افتتاح المدارس التي تعلم جميع العلوم الرفيعة ما عدا الرماية وفن قيادة العربات الحربية، وسمح النبلاء للعامة بالالتحاق بتلك المدارس، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فأثمرت مجموعة من المتعلمين المثقفين، التي تعتبر بحق أعظم ما ظهر من نوعها في أي مكان في العالم القديم.

وقد انصب اهتمام أولئك العباقرة على المشكلة العملية ومحاولة إيجاد وسيلة للتخلص من الآلام التي جلبها سوء الإدارة الحكومية، تلك الآلام التي جعلت الحياة غير محتملة. وكان فلاسفة القرنين السادس والخامس قبل الميلاد مثل " كونفوشيوس " و " منشيوس " و " لا- وتسو " وغيرهم من تلك الجماعة، جماعة العلماء – الموظفين، واستطاع الكثير منهم أن يجد كثيرًا من الحلول، وأهمها النظم التي وضعها " كونفوشيوس " و " لاوتسو "، وتركت أثرًا عميقًا في الحضارة الصينية. أما مدرسة كونفوشيوس على وجه الخصوص، فقد كانت مسئولة مسئولية مباشرة، عن تغيير كثير من النظم الحكومية، بفضل تشجيع الحكام وتعضيدهم لها.

ويعد عصر الدول المتحاربة في الصين عصر ازدهار ثقافي منقطع النظير في العالم بأسره. فكان الكثير من المفكرين (أو طائفة العلماء – الموظفين)، ومنهم " كونفوشيوس " (٥٥١ – ٤٧٩ ق.م) يجوبون البلاد طولاً وعرضًا لعرض خدماتهم ونصائحهم على مختلف الحكام. وإذا كان عام ٢٢١ ق. م قد شهد نهاية فترة الدول المتحاربة

السبع الكبرى، بالقضاء على الإقطاع تمامًا، وتوحيد الصين بالكامل، فإن هذا العام يعد بداية نهضة الصين، وتفجُّر طاقات مفكريها المبدعين في مختلف ميادين الحياة الفكرية.

النظام السياسي

قوام النظام الحكومي، عند الصينيين، إمبراطور، يحكم نيابة عن الإله الأعلى، فهو وصي السماء على الأرض، بل ابنها في حقيقة الأمر، ونبلاء، بعضهم بحكم مولدهم، وبعضهم بحكم تربيتهم وتدريبهم، ومجلس من ستة وزراء، يختص كل واحد منهم بناحية من النواحي الآتية وهي: حياة الإمبراطور وأعماله، ورفاهية الشعب وزواج أفراده المبكر، والمراسيم والتنبؤات الدينية، والاستعداد للحرب والسير فيها، وتوزيع العدالة بين السكان، وتنظيم الأشغال العامة [1]. ثم يأتي بعد ذلك الكهنة الذين يساعدون الملك في التأدية الصحيحة لواجباته عن طريق المراقبات الفلكية التي يقومون بها وتجعل إعداد التقويم ممكناً.

إن سيادة الإمبراطور أو الملك الحاكم تعتمد على أن السماء هي التي قلدته " مهام منصبه " ومنحته مسئولية تنظيم الكون؛ ولهذا يجب أن يكون حكيمًا، مستقيمًا، فاضلاً، لأنه الابن الحقيقي للسماء أو للكائن الأعلى، ولكنه في الوقت ذاته

---

(١) انظر: ديورانت: قصة الحضارة ٢١/٤

يمثل دور الأب بالنسبة إلى شعبه. ومن هنا كان من الواجب عليه أن يعمل على تربية أفراد شعبه وإعالتهم في رحمة ورفق، وإجبارهم على التحلي بالخلق الحسن. فإذا أهمل في تأدية واجباته أو حاد عن الطريق المستقيم، واستبد بالشعب، فإن السماء تسلب منه السلطة، إذ أضاع حقه في حكمهم، وأصبح أشبه ما يكون بالحاكم اللص، عندئذ، وكما أشرنا، تبدي السماء غضبها بأن تقلب الجو في غير أوانه، أو ترسل علامات أخرى خارقة كالصواعق، والأعاصير، والفيضانات المدمرة، والزلازل وكل ما من شأنه أن يدل على أن الملك قد فقد صلته بالسماء.

لقد كانت نظرية: " تفويض السماء" في الواقع، هي رخصة الملك إلى الحكم والسيادة، وهي التي تمنحه النفوذ السياسي القوي على رعاياه، بما يلزمهم الولاء له وإطاعة أوامره.

وقد تفرعت عن نظرية " تفويض السماء " فكرة " تغيير التفويض" بما يفيد حق الشعب في الثورة على النظام القائم إذا حاد عن الصراط السوي، وأن الحاكم لا ينبغي أن يبقى في الحكم دومًا. فالصين لم تعرف نظرية سلطان

الملوك المطلق أو الإلهي الذي انتحله ملوك أوربا وغيرهم لأنفسهم، وبرروا به القهر والتعسف حيال الشعوب. فسلطة الملك الحاكم، إذن، عند الصينيين ليست مقدسة، وبالتالي فسلطانه ليس مطلقًا.

إن سلطة الملك الوحيدة الدائمة، إنما هي المنبعثة من الأخلاق الفاضلة التي تتمثل في العدل والأمانة والاستقامة والاعتدال والوداعة والحزم المعتدل. وفي هذا يقول كتاب التغيرات في نصح الملوك:

" إن القوانين القاسية لا تستطيع أن تحقق الرخاء، وإن نصيب الحزم يساوي نصيب الخيرية، وإن القسوة يجب أن تقف عند التوسط فإذا ما تعدته فقدت نتيجتها النافعة. ومن يطبق القانون بوداعة مع حزم، وبخيرية مع قسوة معتدلة، يفز بالشهرة، إذ يكون قد أدى وظيفته على وجه الكمال. إن الشعب إذا أحس بقسوة القانون عصاه دون أقل تأنيب من الضمير.. ويقول أيضا: إن الوداعة الداخلية والحزم المعتدل والترضية الممنوحة للجميع من غير استثناء، والأمانة

والاستقامة، كل ذلك هو الذي يحقق تحسين حـــال الشـــعب ويعظم امتداد الثقة حتى تتناول الخنازير والأسماك "[١] .

ومن الأشياء التي كان لها دور في الحد من ســـلطان الملك المطلق، نظام الرقابة الإمبراطورية الذي يعطي الرقباء الحق في ملاحظة تصرفات الإمبراطـــور ومعاونيـــه مـــن موظفي الدولة ومعارضة أوامر الحاكم التي تجافي الصـــالح العام.

---

(١) Zenker: Historire de la philosophie chinoise, traducation par G. depage, Paris ١٩٣٢, P ٥٩.

الأخلاق

كان للأخلاق الصينية الفضل الكبير في تماسك الصين الاجتماعي والسياسي واحتفاظها باستقلالها منذ أربعة آلاف سنة حتى الآن. وقد ميَّز الأمة الصينية تحول النظريات والنظم فيها إلى أخلاق عامة في الشعب كله، بلغت درجة عالية من الرقي والسمو، قل أن نجد له مثيلاً عند الشعوب الأخرى.

وقد ربط الصينيون المظاهر الطبيعية بالفضائل والقيم الأخلاقية إلى حد كبير بناءً على تصورهم أن السماء والأرض والإنسان يرتبط كل منها بالآخر برباط محكم وثيق، ومن هنا فإن أي اضطراب بسيط يحدث في إحداها يتردد صداه في جميع جزئيات الأخريين. فعلى سبيل المثال إذا اقترف إنسان ما جريمة من الجرائم، مبتعدًا بذلك عن الطريق السوي، الذي هو صوت الطبيعة أو صوت السماء، حدث في الحال اضطراب في السماء والأرض يتمثل في شكل انتشار الأوبئة والجدب وحدوث الزلازل والبراكين والأعاصير والكسوف والخسوف، وليس كل ذلك الاضطراب إلا تعبيرًا عن غضب الطبيعة عن ابتعاد الإنسان عن

الصراط المستقيم، واحتجاجًا على ما يقترفه من جرائم. ولهذا يقول: " أونج – فان " أو القاعدة العظمى، وهي أقدم وثيقة فلسفية صينية:

" إن سلوك احترام من يستحق الاحترام يجلب الغيث في الوقت المراد، والتبصر يجلب الحرارة في الوقت المراد، والتمرن على التأمل يجلب البرودة في الوقت المراد، وحكمة الملك تجلب الهواء في الوقت المراد، ولكن الفظاظة تديم المطر من غير انقطاع، والكسل يديم الحرارة من غير انقطاع، والتهوس يجلب البرد من غير انقطاع، واحتقار ما يستحق الاحترام يجلب الجدب، والحماقة تجلب العاصفة "[1].

هكذا ارتدّت الأخلاق عند الصينيين، نتيجة ربطهم المظاهر الطبيعية بالفضائل الأخلاقية، إلى الواجب، الذي يلزم كل إنسان أن يكون فاضلاً، يحرر سلوكه الأخلاقي من قيود الميول والأهواء، حتى لا يكون مجلبة للكوارث الطبيعية من كسوف وخسوف أو زلازل أو أعاصير أو جدب أو أوبئة، فتشقى بسببه الأمة جمعاء.

---

(١) انظر: Zenker: Historire de la philosophie chinoise, traducation par G. lepage, Paris ١٩٣٢, P ٤٨-٤٩

وتتحقق الفضيلة عندهم عن طريق مجاهدة النفس، وتطهير القلب من آفات الرذائل، والتجمل بالفضائل، واتباع الصراط السوي في كل شيء.. وهكذا يظهر لنا أن حظ الإنسان في الحياة يقوم على ارتباط الفضيلة والواجب.

والخلق الخيِّر، عندهم، مغروز في طبائع البشر، والإنسان خير بطبيعته؛ لأنه جزء الطبيعة، والطبيعة هي الإله. ولكن إذا كان النبات أو الحيوان مجبرًا على اتباع طبيعته الخيرة، فإن الإنسان، باعتباره كائنًا مفكرًا، يتمتع بالحرية والاختيار، فإنه ليس مجبرًا على اتباع الصراط السوي في كل شيء. ذلك أن الخير الموجود في داخله، ليس كامل التكوين، إنما هو موجود على هيئة استعداد فقط يضعف بالإهمال ويقوى بالمران، وينمو بالتربية الحسنة، وفي هذه الحالة تتحول الفضيلة أو الخير الموجود في داخله، إلى طبيعة عملية له.

وبهذا سبق الصينيون الرواقيين إلى هذه النظرية بعدة قرون، حيث أكد هؤلاء الأخيرون أن الإنسان خيِّر بفطرته، وأنه جزء من الطبيعة التي هي الإله الذي لا يقصد لغير الخير، وأن الشر مرجعه إلى الإنسان وحرية اختياره. كما

سبقوا أيضًا "جان جاك روسو" إلى القول بأن الشر ليس أصيلاً في طبائع البشر، ومن الممكن في رأيهم أن يتجنب الإنسان الوقوع في الشر لو استمع إلى صوت العقل واستجاب لحكمه، ومن هنا كانت مسئولية الإنسان عن أفعاله.

والإله الأعلى عند الصينيين هو المثل الأعلى في كمال الأخلاق وسموها، فهو خير كله، رحيم، وحكيم، وعادل، ومن هنا كان تنزيههم إياه عن القسوة والمحسوبية والظلم. فمن المستحيل مثلاً أن يوقع العقاب بإنسان لم يقترف جريمة أو أن يعفو عن آثم لم يقلع عن إثمه، كما كان يفعل آلهة البابليين والعبرانيين، القساة، غلاظ الأكباد، وإنما هو إله فاضل رحيم يحاسب كل إنسان وفقًا لما قدمت يداه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فيمنح النعمة للأخيار، ويقسو على الأشرار. وفي هذا يقول أحد كتبهم القديمة، وهو كتاب "شو – كينج" ما نصه:

" إن الفضيلة وحدها هي التي تؤثر في السماء، وإنه لا يوجد أمام الفضيلة البتة شيء بعيد بحيث تعجز عن

اللحوق به، وإن المتكبر منخفض، والمتواضع مرتفع، فإذا لاحظت ذلك، فإنك ستسير على صراط السماء " [1].

ومن أهم الفضائل الأخلاقية الصينية فضيلة الرحمة لجميع الخلق. وقد هاجمت هذه الأخلاق العنف والقسوة، وأمرت بالرحمة في المعاملات، وألحت على إفهام الأقوياء والأغنياء أن الضعفاء والفقراء خير منهم، وأن المظاهر الخداعة من غنى وصحة وحظ سعيد ونحوه تخفي وراءها سرًا غامضًا هو الخيرية. ومن هذا ما يقوله كتاب التغيرات:

" إن الهواء الذي يصفِّر في السماء، إنما هو تصوير لقوة الرجل الذي يظهر صغيرًا، وإن الرجل الذي يمشي فوق ذيل النمر دون أن يعضه هو الذي سينجح، وإن التواضع يخلق النجاح، وإن الحكيم المتواضع يستطيع أن يجتاز البحر الأعظم " [2].

هذه الرحمة التي نصت عليها الأخلاق الصينية، ليست هي الرحمة التي تؤدي إلى الضعف، وإنما هي الصلابة في تحقيق الواجب. والتلطف مع الثبات، والحزم في

---

(١) راجع صفحة ٥١ من كتاب " زانكير ": تاريخ الفلسفة الصينية.

(٢) المصدر السابق ص ٥٢

السلطان مع الحكمة. وسهولة الانقياد مع القوة، والشدة مع الإخلاص، والشجاعة مع العدالة، والثبات في وداعة. أو نستطيع أن نقول بأنها هي الاعتدال أو التوسط في كل شيء، وهذا التوسط، في نظرهم، هو الفضيلة في ذاتها. وفيها يقول كتاب التغيرات: " إن احتمال فظاظة الأفظاظ في وداعة، واختراق الأنهار في ثبات وشجاعة وعدم إهمال البعيد، وعدم الانشغال بالغير، كل هذا مجتمعًا هو الذي يحقق السير في طريق الاعتدال الأوسط " (١).

إن الأخلاق الصينية إذا كانت قد تميزت بالمثالية من ناحية، فإنها من ناحية أخرى انطبعت بالطابع العلمي النفعي، الذي يهدف إلى سعادة المجتمع. وقد تسرَّع بعض الباحثين في الحكم على هذه الأخلاق فاتهمها بالنفعية الجافة، وذلك بالنظر إلى أن كتبهم تنص على أن السعادة هي غاية الفضيلة، ولكن النظرة الفاحصة المدققة توضح أن هذه السعادة المقصودة ليست هي سعادة الفرد وإنما هي سعادة المجتمع، وأن الخيرية، تعد في نظرهم، من أسمى الفضائل، في حين تعد الأنانية من أقبح الرذائل.

---

(١) المصدر السابق ص ٥٣.

كونفوشيوس

لقد تم وضع دعائم فلسفة كونفوسيوس خلال عصر الفلسفة الذي استمر من القرن السادس حتى القرن الثالث قبل الميلاد، ونعمت فيه الصين بفترة غير عادية من ازدهار العقل البشري، وظهور عدد كبير من الفلاسفة " أخذوا يتنقلون من بلاط إلى بلاط، ويجمعون الأتباع حولهم، ويشرحون نظرياتهم، ويطرحونها للنقاش في حوار علني وكل منهم يسعى للعثور على أمير" يضع طريقهم (أي مستقبلهم) موضع التطبيق العملي ". ولقد وصفهم تسو – ماشين (ازدهر من سنة ١٤٥ – ٩٠ ق. م) الملقَّب بأبي التاريخ الصيني – وصفهم بأنهم " المدارس المائة [١] ".

وتعتبر مدرسة كونفوشيوس أقدم المدارس الكثيرة التي تتألف منها المدارس المائة، ومؤسسها هو كونفوشيوس فيلسوف الصين الأول.

---

(١) جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام عالم المعرفة، العدد (١٧٣)، الكويت ١٩٩٣، صـ٢٨١-٢٨٢

يعد كونفوشيوس، زعيم حكماء الصين القدامى، أحد الرجال القلائل الذين أثروا تأثيرًا عميقًا في التاريخ البشري بفضل قوة شخصيتهم ومواهبهم العقلية، ومنجزاتهم الفكرية، فقد كان حكيمًا وفيلسوفًا سياسيًا، وأخلاقيًا، ورائدًا من رواد التربية والتعليم، شكلت شخصيته الوعي الصيني، وساد نفوذ مدرسته أكثر من خمسة وعشرين قرنًا من الزمان منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى العصور الحديثة، لذلك يكاد يكون المعبر الحقيقي عن الفكر الصيني العريق، والممثل الرسمي لحضارته العتيدة التي ترجع في عراقتها، كالحضارة المصرية الفرعونية إلى آلاف السنين.

وإذا كانت الصين قد شهدت قيام مناقشات عنيفة بين المدارس المختلفة، لاسيما المدارس الأربعة الرئيسية وهي الكونفوشيوسية، والتاوية، والموتسية، والقانونية، وكانت الحرب سجالاً بهدف السيطرة على العقل الصيني، إلا أن الغلبة في النهاية كانت للمدرسة الكونفوشيوسية ولفلسفتها التي استطاعت أن تهيمن على الفكر الصيني على مر العصور، كما كان لزعيمها كونفوشيوس وضع خاص متميز، فقد نظر إليه الصينيون نظرة المؤمنين إلى أنبيائهم، وبنوا له

الهياكل في البلدان وقدموا إليه القرابين، ولذلك تعد مبادئه ديناً من أديان الصين هذا على الرغم من أن كونفوشيوس نفسه، لم يدعِ النبوة، ولم تصدر عنه معجزات كالأنبياء عليهم السلام، كما أنه رفض أن تتضمن أحاديثه أفكارًا ميتافيزيقية مثل فكرة الموت والآخرة والملائكة. والصيني في حقيقة الأمر، يظل في جوهره كونفوشيوسيًا حتى لو اعتنق التاوية أو البوذية أو المسيحية أو الإسلام نظرًا لالتصاق الكونفوشيوسة بفكر الأمة، وتأثيرها العارم في أسلوب حياة الصينيين طوال الألفي سنة الماضيين.

حياة كونفوشيوس:

ولد كونفوشيوس عام ٥٥١ قبل الميلاد في إمارة " لو Lu " الصغيرة، بولاية (شانتونج Shantung)، وتوفي بها عام ٤٧٩ قبل الميلاد. وهو ينحدر من أسرة نبيلة، يرجع أصلها إلى الإمبراطور العظيم هوانج – دي، وإن له أحفادًا كثيرين، وإن نسله لم ينقطع إلى وقتنا هذا. ولا تزال البلدة التي ولد فيها كونفوشيوس، أي مدينة تشوفو، بولاية شانتونج، لا يعمرها حتى الآن إلا نسل ابنه الوحيد، ومنهم

وزير المالية في الحكومة الصينية التي كانت قائمة في منتصف الثلاثينيات [1].

واسم كونفوشيوس، هو النطق اللاتيني لاسم الحكيم الصيني الذي نتحدث عنه، وهو يتكون من لفظين: كونج K'ung، وهو اسم الأسرة التي ينتمى إليها، وفو- تسيه Fu Tze ومعناه الأستاذ المبجل أو الحكيم أو الفيلسوف فاسم كونج – فو تسيه أي الأستاذ كونج حرَّفه أو لتَّنه الأوربيون فصار مشهورًا عندهم: (كونفوشيوس Confucius) ويعني إذن الأستاذ كونج أو الفيلسوف كونج أو الحكيم كونج.

ولقد كان كونفوشيوس ثمرة لزواج غير شرعي (أو زواج لم يكن متفقًا والتقاليد التي كانت مرعية آنذاك). وكان والده من الحكام في الدولة (لو)، لكنه توفي وترك كونفوشيوس صغيرًا لم يتجاوز العام الثالث من عمره. ولقد وصفوه، كما جاء في الأسطورة، بأنه كان له ظهر تنين، وأذنا فيل، وفم كالبحر، وأن نافورة من المياه انفجرت لتغسل

---

(١) انظر ديوارنت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٦م، ١/٤٠

الطفل حديث الولادة، الذي ولد في كهف وقادت أمـــه إليـــه روح مبشرة.

نشأ كونفوشيوس وترعرع في كنف أمه التي عاشت في الكفاف، بالرغم من أن أسرته كانت تنتمي، كمـــا أشـــرنا إلى أصول أرستقراطية عريقة، فلم يسعه للقيام بأود حياتـــه وإعالة أمه الفقيرة إلا أن يعمل بعد الفراغ مـــن المدرســـة. وهكذا نجد أنه منذ طفولته المبكرة قد تعود تلك الرزانة التي هي من خصائص كبار السن، وهو بهذا كان دائمًـــا يكبـــر عمره.

وبالرغم من ذلك فقد وجد متسعًا من الوقـــت لكـــي يبرع في الرماية وفي العزف على الناي، وهو بهذا يعد خير معبر عن الحكمة الصينية " تسير الفلسفة والموسيقى جنبًا إلى جنب "

لقد عُرِف عنه أنه كان منذ نعومة أظفـــاره، شـــديد الولع بالموسيقى المعبرة الجميلة.

ولما بلغ من العمر سبعة عشر عامًا اشتغل برعـــي الماشية والأغنام واهتم بحرفته مما أدى إلى زيادة إنتاج هذه الثروة الحيوانية. ثم تزوج في التاسعة عشرة من عمره وفي

نفس الوقت رُقِّي أمينًا عامًا على مخازن الحبوب وبعد ذلك مشرفًا عامًا على الحقول والأشغال العمومية. ولما كان في العشرين أنجب ابنه الوحيد، ولم يشعر نحوه ولا نحو زوجته بتعلق شديد. ثم ما لبث أن طلّق زوجته وهو في الثالثة والعشرين، ولم يتزوج بعدها أبدًا. إلا أنه كان، على الرغم من كثرة مشاغله وأعبائه الإدارية، يقضي جزءًا كبيرًا من وقت فراغه في تثقيف نفسه ذاتيًا وذلك بدراسة وتحصيل علوم التاريخ والشعر والموسيقى.

أما عن موضوع انفصاله عن زوجته، فيبدو أنه قد أدرك أن الفلسفة لا تستقيم مع الحياة الزوجية لصعوبة اعتماد الرجل، في تلك الأيام، في إعالة أسرته على ما تدره الحكمة عليه [1].

ويبدو أن الفيلسوف الألماني (فردريك نيتشه ١٨٤٤ – ١٩٠٠ م) سوف يتفق في العصر الحديث، مع ما ذهب إليه كونفوشيوس من أن ثمة شيئًا من التناقض بين الفلسفة والزواج، لقد رأى نيتشه أن الكثير من الفلاسفة قد

---

(١) انظر: د. صلاح رسلان: القيم بين الذاتية والموضوعية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة. ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م، ص ١١٨

مات بعد ولادة أول طفل لهم، وأنه إذا كان الشقاء والتعاسة والكف عن التفكير المبدع من مساوئ الزواج، فإن الهناء والسعادة والإبداع من نعم العزوبية.

وفي سن الثانية والعشرين من عمره قرر الاشتغال بالتعليم، واتخذ من بيته مدرسة، يلقي فيها الدروس على مريديه من مختلف الأعمار، ومن جميع أنحاء إقليم (لو) ومن الأقاليم البعيدة عنه. وقد أخذ على نفسه تعليم تلاميذه ومريديه موضوعات التاريخ والشعر وآداب اللياقة والموسيقى، بصفة خاصة، والتي كان يؤمن بتأثيرها الفعَّال في الصقل الأخير لشخصية الإنسان. وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون دفعه من مصروفات تحدد على أساس قدرة التلميذ على الدفع. وكان لا يقبل في مدرسته إلا التلاميذ الذين يجد عندهم ميلاً صادقًا إلى هذه الدراسات، وشغفًا بالعلم والمعرفة. ومن أقواله، التي اشتمل عليها كتاب المنتخبات (The Analects) [1].

---

(١) والذي ترجم إلى اللغة العربية، لأول مرة، في عام ١٩٣٦م، تحت اسم: كتاب الحوار ونشرته المطبعة السلفية بالقاهرة.

"إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول: ماذا أرى في هذا؟ فإني لا أستطيع أن أفعل له شيئًا. وإني لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته، ولا أعين من لا يعني بالإفصاح عما يكنه في صدره. وإذا ما عرضت ركنًا من موضوع ما على إنسان، ولم يستطع مما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة الأركان الباقية فإني لا أعيد عليه درسي ". وقد أدرك، منذ آلاف الأعوام، أن نوعين من الناس، هما وحدهما اللذان لا يستطيعان أن يفيدا من تعاليمه وهما أحكم الحكماء وأغبى الأغبياء. ومن ناحيتنا نجد أن هذا الرأي سوف يتردد في العصر الحديث على لسان أعظم الفلاسفة الألمان المحدثين وهو الفيلسوف (كانط ١٧٢٤ – ١٨٠٤ م) الذي آثر أن يوجه قسطًا وافرًا من عنايته واهتمامه إلى الطلاب من ذوي القدرات المتوسطة. ومن أقواله في هذا المعنى: " فالعباقرة لا يحتاجون إلى معونتي والأغبياء لا تجدي معهم أي معونة ".

كما آمن كونفوشيوس بقدرة وفاعلية الفلسفة الإنسانية على إصلاح خلق وعقل من يسعى إلى دراستها بأمانة وإخلاص: وفي هذا يقول في كتاب (المنتخبات):

" وليس من السهل أن نجد إنسانًا واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح إنسانًا صالحًا " [1].

ولقد بلغ عدد الذين تلقوا الحكمة وتخرجوا على يديه ثلاثة آلاف تلميذ ومريد من بينهم حوالي اثنين وسبعين كان كونفوشيوس يصفهم " بأن لهم مواهب عظيمة وعقليات جبارة ". وقد شغل الكثير من هؤلاء العباقرة مراكز قيادية في الدولة. كما كان لهؤلاء التلاميذ دور كبير في نشر مذهبه في البلاد، حتى صار مذهبًا رسميًا منذ أواخر القرن الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن العشرين، يضاف إلى ذلك قيامهم بصياغة فلسفته على الصورة التي نقلت بها إلى العالم الحديث.

وقد حدث لكونفوشيوس، بعد ذلك، أن التقى في إحدى أسفاره بأشهر فلاسفة الصين القدامى، وهو الفيلسوف (لاو – تسو) صاحب كتاب (عن الطريق والفضيلة)، وكان وقتذاك في السابعة والثمانين من عمره، ويقيم منفيًا في

---

(١) راجع نفس المعنى في كتاب الحوار لكونفوشيوس: نقله إلى اللغة الصينية مباشرة الأستاذ محمد مكين (الصيني الأصل)، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٣٥٤هـ، ص ٧٧.

(تَشو) عاصمة الإمبراطورية الصينية، أما عمر كونفشيوس، فكان أقل بكثير من نصف عمر (لاو – تسو)، وقد تأثر كونفوشيوس الشاب كثيرًا بمبادئ فلسفة هذا الفيلسوف الشيخ الذي قدم له النصيحة الآتية:

" لقد سمعت أن الأغنياء يهدون الناس بالمال، أما الفضلاء فيهدونهم بالنصائح. وسأقدم لك بعض النصح: إن حياة الرجل الذكي الألمعي دائمًا في خطر؛ لأنه يميل غالبًا إلى نقد الناس. والرجل النابه المعروف الذي يقرأ له الناس يعرض نفسه للخطر؛ لأنه يميل إلى الكشف عن نقط الضعف فيهم، فلا تفكر إذن في نفسك دون سواها عندما تعمل كابن للعدالة أو قاضيًا لها ".

وعندما عاد إلى ولاية (لو) مسقط رأسه، مكث فيها خمسة عشر أمضاها في التدريس إلى جانب اشتغاله في وظيفته مستشار لأمراء الولايات والمدن الصينية الذين كانوا يطلبون نصيحته فيما يقابلونه من مشكلات إدارية وعلمية. ومن المعلوم أن الصين كانت تتكون، في تلك الفترة، من ولايات وإمارات إقطاعية يحكم كل منها والٍ أو أمير، وكانت هذه الولايات والمقاطعات في نزاع مستمر وحرب

دائمة، وهو ما يعرف بعصر (الولايات المتحاربة)؛ لأن كل أمير أو والٍ كان يحاول توسيع رقعة مملكته على حساب الآخرين. وقد نتج عن هذا شيوع الاضطراب داخل الولايات الصينية والتجاء الأمراء إلى كونفوشيوس للاسترشاد بتعاليمه ونصائحه السياسية والسؤال عن أفضل الصفات والشروط التي من شأنها إقامة الحكم الصالح [1].

وبعد ما مرّ كونفوشيوس بطائفة من التجارب، وتقلد عدة مناصب وزارية، كوزارة العدل ووزارة الأشغال العمومية، نتج عنها شيوع العدل والشرف والأمانة وزيادة رقعة الأرض الزراعية وتحسن إنتاجيتها، عين عام ٥٠١ في أواخر القرن السادس قبل الميلاد رئيس وزراء دولة (لو Lu) وكان وقتذاك في السنة الحادية والخمسين من عمره.

وقد مكّنه هذا المنصب الجديد من أن يترجم مبادئه عمليًا، وأن يحقق أفكاره العمرانية الراقية، وكان نجاحه

---

(١) انظر: Zenker: Historire de la philosophie chinoise, Giles (H.A) : history of Chinese literature London, ١٩٠١

ساحقًا. وفي ذلك تقول السجلات الصينية في لغة عاطفية وجدانية:

" لقد استحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلا برأسيهما واختفيا وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال، كما أصبح العفاف ودماثة الخلق شيمة النساء. وجاء الأجانب زرافات ووحدانًا من الولايات الأخرى، وأصبح كونفشيوس معبود الشعب ".

ولم تستمر هذه التغيرات والنجاحات طويلاً، ذلك أن أمراء الولايات المجاورة لولاية (لو Lu) بدءوا يحسون بالقلق وبأنهم في خطر لما رأوه من عظمة ولاية (لو)، والإنجازات الكبيرة التي تحققت فيها تحت حكم كونفشيوس، ومن هنا أخذوا يأتمرون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للإيقاع به. واستطاع وزير ماكر من وزراء دولة (تشي Ch'i) أن يعثر أخيرًا على المكيدة التي يفرق بها بين أمير (لو) وكونفشيوس فأرسل هدية تضم ثمانين حورية من العذراوات والراقصات والمغنيات، ومائة وعشرين جوادًا تفوق الفتيات جمالاً. وكان أن نجحت الخطة، فأهمل الأمير شئون الإمارة، وانصرف عن الإصغاء إلى نصائح

كونفوشيوس وتنبيهاته، مؤثرًا عليها النظر بإعجاب إلى سيقان الحسان الجميلة أكثر من إعجابه بالفضيلة والقلوب الطاهرة؛ فأصيب الأخير بقنوط بالغ ، وقرر الرحيل بعد أن قضى سنوات خدمة رائعة، ولكنه غنى، قبل رحيله، أغنية، نابعة من الموقف الذي عجَّل برحيله، ومعبرة عن تفضيل البعض الجمال على الواجب والكمال فقال:

احذر لسان المرأة
إنك سلتدغ منه إن عاجلاً وإن آجلاً
واحذر زيارة المرأة
إنها ستصيبك إن عاجلاً وإن آجلاً
هي هو!! هي هو!!
إنني سأرحل إلى مكان آخر

ومنذ هذا التاريخ، بدأت فترة حياة ارتحال وتشرد، فأخذ كونفشيوس يجوب دول الصين الإقطاعية باحثًا عن مكان يستطيع أن يطبِّق فيه فلسفته على الصعيد السياسي وعن حاكم عادل يريد أن يتعلم كيف يجعل قومه صالحين سعداء. وقد لقي خلال تجواله من دولة إلى دولة ألوانًا من

المجاملة والترحاب، كما تعرضت حياته، في نفس الوقت لمشاقٍ وأخطار كثيرة.

وذات مرة، التقى كونفوشيوس وأتباعه أثناء تجوالهم في البلاد بناسك طاعن في السن، اعتزل الشئون العامة، وآثر عليها الحياة الزراعية البعيدة عن جلبة المدينة، وعندئذ قال الناسك لتسي لو تلميذ كونفوشيوس: " إن الاضطراب يجتاح البلاد اجتياح السيل الجارف، ومن ذا يستطيع أن يبدل لكم هذه الحال؟ أليس خيرًا لكم أن تتبعوا أولئك الذين يعتزلون العالم كله، بدل أن تتبعوا ذلك الذي يخرج من ولاية إلى ولاية ".

وقد فكر كونفوشيوس طويلاً في كلام الناسك (شانج جو) وقال: " إن شانج جو مخطئ فيما يقول، فإنه ليس بالهرب من الشر يستطيع المرء أن يغيره إلى الأحسن. وإذا كان الناس جميعًا خيرين سعداء لما كانت بي حاجة إلى تقويمهم. إنه من واجب كل إنسان أن لا يحاول الهرب من حيث توجد المتاعب، بل إنه من الجبن أن يرى الإنسان ما هو صواب، ولا يحاول أن يفعله ".

لقد رفض كونفوشيوس، بهذا أن تكون فلسفته انسحابية تؤثر حياة الزهد والانسحاب من زحمة الشئون العامة، واعتزال تيارات المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، وتصور الحياة، بدلاً من ذلك، كفاحًا مريرًا، وصراعًا ضد الشر وأن على الإنسان أن يوظف قدراته ومواهبه في كفالة الخير للآخرين.

ولما بلغ التاسعة والستين من عمره، وبعد أن أنهكته هذه الأسفار المختلفة، حظي كونفوشيوس في النهاية بكل تقدير وترحاب وإجلال من دوق مدينة (لو) الجديد، ولكنه أوضح له أنه سيقضي ما تبقى له من أيام حياته في تقديم النصح لزعماء (لو) ووزارئها، وجمع نسخ الكتب القديمة المقدسة التي سبق أن أشرنا إليها، باعتبارها مصادر الفلسفة الصينية، كما اهتم في سنوات عمره الأخيرة، بوضع نظام تربوي جديد، وكتابة تاريخ الصينيين ولم يزعم كونفوشيوس أنه يبتكر شيئًا جديدًا، حتى إنه سمَّى نفسه " ناقل الأفكار وليس صانعها ". وقد سره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله، وفي ذلك يقول:

" لقد كنت في الخامسة عشرة من عمري مكبًا على العلم، وفي الثلاثين وقفت ثابتًا لا أتزعزع، وفي سن الأربعين زالت عني شكوكي، وفي الخمسين من عمري عرفت أوامر السماء، وفي الستين كانت أذني عضوًا طيعًا لتلك الحقيقة، وفي السبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل ".

استشعر كونفوشيوس ذات صباح الموت قبل أن يعاجله، وكان قد بلغ وقتها الثالثة والسبعين من عمره، وأنشد هذه القطعة الحزينة قبل موته:

" لابد للجبل العظيم أن ينهدم
ولابد للدعامة القوية أن تنكسر
ولابد للرجل الحكيم أن يذبل كما يذبل النبات "

ثم أوى إلى فراشه ومات في نهاية أيام عام ٤٧٩ قبل الميلاد، ودفن بمقاطعة (تشوفو) في دولة (لو Lu) وظل تلاميذه في حداد مدة ثلاث سنوات يبكون كما يبكي الأبناء آباءهم، وبعد مرور هذه المدة غادروا أكواخهم التي أقاموها حول قبره الذي لا يزال يزار حتى الآن.

سمات شخصيته:

يعد كونفوشيوس من الشخصيات القليلة الجذابة التي تركت أثرًا كبيرًا على الأجيال المتعاقبة نظرًا لما تحلى بـــه من أخلاق شخصية، نستطيع أن نعرف القدر الكبير عنها من أقواله المسجلة في كتاب (المنتخبـــات Analects) والـــذي ترجم إلى اللغة العربية تحت اسم كتاب الحوار، ومـمـــا رواه تلاميذه عنه.

تميز برقة الطباع، وكان مهذبًا مرحًا، يحب المـــرح والفرح والسرور إلى أبعد الحدود، وكان متذوقًا للفنون مثـــل الموسيقى والغناء، ويداوم على حضور الحفلات والطقـــوس الدينية التي تلعب الموسيقى فيها دورًا كبيرًا، كما كان يقدس قواعد الآداب والمجاملة.

ولكن كونفوشيوس، إلى جانب ذلك كان شديد القسوة على المنافقين، أصحاب الـــوجهين، الـــذي وصـــفهم بـــأنهم " لصوص الفضيلة "، وكان يسخر من الحكـــام والمـــوظفين الذين جعلوا همهم الوحيد هو ملء بطونهم بالطعـــام، وكـــان ينعتهم بأنهم " حقائب أرز " وقال لتلاميذه، عن أمثال هؤلاء ذات يوم: " ما أشقى الرجل الذي يملأ بطنه بالطعام طـــوال

اليوم، دون أن يجهد عقله في شيء.. لا يتواضع في شبابه التواضع الخليق بالأحداث، ولا يفعل في رجولته شيئًا خليقًا بأن يأخذه عنه غيره، ثم يعيش إلى أرذل العمر؛ إن هذا الإنسان وباء ". ومن رأيه أن المقامرين – أنفسهم – يفعلون شيئًا فهم أفضل– إلى حد ما – من هؤلاء الخاملين الذين لا يستخدمون عقولهم أبدًا، مؤثرين الاستمتاع بأطايب الطعام، وإغراق أنفسهم في ألوان الترف، وابتزاز الأموال من الشعب.

وقد عُرِف عن كونفوشيوس حبه للجمال، والتأنق في الملبس، حتى إنه كان يعتبر مجددًا في فن الملبس، يقلد الجميع ذوقه، كما كان محافظًا على كرامته وحريصًا على حسن اختيار رفاقه خاصة أولئك الذين يستطيع أن يتعلم منهم. ومن أقواله: " إنني دائما لا أسير برفقة ثلاثة أشخاص إلا إذا اكتشفت أني أستطيع أن أتعلم شيئًا من أحدهم ".

لقد كان من أبرز صفاته حبه للدراسة والبحث، وأنه شخص لم يولد عارفًا للحقيقة، ولكنه يجتهد في القراءة والتعليم والبحث عن المعرفة والوصول إلى الحقيقة ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

ومن أقواله، أيضًا في هذا المعنى:

" لا يقلقني في حياتي إلا الأمور الآتيـــة: أن أنســـى تقويم سلوكي وأخلاقي، وأن أهمل دراساتي، وأن أخفق فـــي اتباع الطريق السليم الذي عرفته ورأيته، وأن أعجـــز عـــن تصويب أخطائي. إن الذي لا يصلح خطأه وقد عرفه، إنمـــا يرتكب خطأً جديدًا ".

ومن أخلاقه الرفيعة الاعتزاز بالنفس دون تعالٍ على الآخرين. إن ثقته العظيمة في نفسه وفي رسالته الأخلاقية لم تدفعه إلى الكبرياء أو إلى استغلال من هم دونه.

كما تميز كونفوشيوس في أخلاقه بالهدوء والطمأنينة الباطنية التي ترجح كل ألم يحتمل أن ينزل به، وكما حـــدثنا أحد تلاميذه أنه لا الظلـــم المـــروع، ولا الألـــم المبـــرح، ولا الخطر المميت كانت تهزه أو تحـــدث فـــي نفســـه أقـــل اضطراب. وبهذا سبق كلاً من الأبيقوريـــة والرواقيـــة فـــي الاستخفاف بالظروف الخارجية، والقول بأن الإنسان يســـتمد سعادته من باطن نفسه دون اكتراث للعوامل الخارجية التـــي تُفرَض عليه فرضًا.

وكان يظهر عطفًا شديدًا على معاناة البشر، مقرونًا بالتعبير العملي عنه، إذ كان يمقت العواطف النظرية، ويفضل أن يكون تعاطفه مع الآخرين عمليًا. فقد حدث أن عانى واحد من أصدقائه من خسارة شخصية، وكان أن سارع كونفوشيوس إلى نجدته بإهداء أسرته جواد من جوادي عربته، وقال في ذلك:

" إنني أكره فكرة ألا تكون دموعي يعقبها تعاطف عملي ".

مؤلفاته (الكتب التسعة):

تنقسم المؤلفات التي تناولت فلسفة كونفوشيوس إلى قسمين:

قسم يسمى: " الكتب الخمسة الإنسانية القديمة أو الكلاسيكيات الخمس ".

أمَّا القسم الثاني فيسمى " الكتب الأربعة " أو "كتب الفلاسفة".

فأمَّا القسم الأول فهو مجموعة شروحه وتعليقاته على الكتب الخمسة القديمة التي كتبها بنفسه وتركها لتلاميذه،

وهي تعد ملخصًا للثقافة الكونفوشيوسية، وتاريخًا للفلسفة والسياسة والاجتماع والدين والتربية في العصور السابقة عليه. كما أن تلاميذه قد أضافوا كذلك إلى هذه الكتب شروحهم وتعليقاتهم إلى حد أن اختلطت آراؤهم بآراء أستاذهم. ولكن يبقى لكونفوشيوس وتلاميذه. الفضل الكبير عندما تولوا القيام بمهمة نقل هذه الكتب التي سبقت عصر كونفوشيوس من لغتها القديمة، غير المعروفة إلا لأقلية ضئيلة من مجتمع هذا العصر، إلى اللغة الصينية المفهومة التي كانت شائعة آنذاك.

وتتألف الكتب الخمسة القديمة، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل، من كتاب الأغاني (أو الأناشيد): الذي يشرح حقيقة الحياة البشرية، ويصف دوافعها، ويوضح مبادئ الأخلاق الفاضلة. والثاني: كتاب التاريخ، وهو يشتمل على الوثائق التاريخية الخاصة بالإمبراطورية الصينية وماضي دولة (لو Lu) على اعتبار أنها تسجيل ملهم البطولة والنظام. والثالث: كتاب الطقوس، وهو جامع لقواعد السلوك الروحي والطبيعي التي لابد منها لتكوين الأخلاق، واستقرار النظام الاجتماعي والسلام. والرابع: حوليات الربيع

والخريف: وهو كتاب للتاريخ بمعنى الكلمة، يتضمن تسجيلاً موجزًا لأهم ما وقع من أحداث في وطنه (لو)، كما يظهر الواجبات التي نهض بها حكماء الصين فيما قبل التاريخ.

والخامس: كتاب التغيرات الذي أُلف في الأصل للتنجيم ومعرفة الحوادث المستقبلة، ويعتبر من أفضل الكتب التي أهدتها الصين إلى ذلك الميدان الغامض ميدان علم ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا). وقد وجد فيه كونفوشيوس، خصوصًا عند نهاية حياته العلمية، سر المعرفة الكاملة، هذا على الرغم من حرصه على ألا يلج باب الميتافيزيقا في فلسفته.

أما عن القسم الثاني، فيتكون من أربعة مؤلفات تدعى بالصينية (سوشو)، وهي مؤلفات لم يخطها قلم المعلم الكبير، وإنما دوَّنها أتباعه وتلاميذه بوحي منه، وأضافوا إليها تعليقاتهم، وتعتبر في الواقع، المرجع الرئيسي للفلسفة الكونفوشيوسية. وأشهر هذه المؤلفات الأربعة طرًّا هي كتاب (لون – يو) أي: المنتخبات Analects أو الأحاديث أو المحاورات أو (شذرات Fragments)، ويحتوي هذا الكتاب على عشرين فصلاً تتضمن مجموعة آراء المعلم ومحادثاته مع تلاميذه، وملاحظات هؤلاء على آراء أستاذهم،

وهو بهذا يقدم لنا، ومن هذه الناحية، ملخصًا واضحًا لفلسفة كونفوشيوس، حتى ذهب العلماء إلى تسميته باسم (إنجيل كونفوشيوس Confucius Bible). وقد ترجم هذا الكتاب من اللغة الصينية مباشرة إلى اللغة العربية ولأول مرة الأستاذ محمد مكين (الصيني الأصل) تحت عنوان: الحوار، ونشرته المطبعة السلفية بالقاهرة عام ١٣٤٥هـ. ويوجد لهذا الكتاب ثلاث نسخ يختلف بعضها عن بعض اختلافًا بسيطًا. أما الكتاب التالي وهو كتاب الداشوه أو العلم العظيم The Great Learning فهو كتاب موجز يحتوي على دراسات لبعض الآراء والمشاكل الفكرية في صورة أمثلة وحكم، ومن المحتمل أن تكون أجزاء منها قد كتبها الحكيم بنفسه.

وترجع الأخلاق الكونفوشيوسية في كتاب " العلم العظيم " إلى أصولها المجردة، فيما يذهب إلى ذلك أحد الباحثين[١].

---

(١) انظر: توملين (أ.و.ف): فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحميد سليم، مراجعة علي أدهم، دار المعارف بمصر ١٩٨٠ م ص ٢٩٧ – ٢٩٨

يقول الكتاب: " للأشياء أصولها وفروعها، وللأمور نهايتها وبدايتها، وفي معرفة ما هو الأول وما هو الأخير سيقود المرء إلى الاقتراب مما يعلم في كتاب " العلم العظيم". ونحاط علمًا بعد ذلك كيف أن القدماء شرعوا في تنظيم ممالكهم وفقًا للفضيلة. ولتحقيق راحة الجماهير اكتشفوا أن من واجبهم أولاً، أن يكونوا قدوة صالحة في حياتهم الأسرية، وقد أدى هذا بهم، بدوره، إلى أنوع من البحث والاستقصاء في نفوسهم الذاتية، بالغين الذروة، في إدراك أنهم يجب أن يتوسعوا حتى يصلوا إلى أقصى درجة لديهم من المعرفة حتى تتغلغل في قلب " الواقع " أو " طبيعة الأشياء ".

بمعنى آخر، الحكم الصالح لا يمكن بلوغه فقط عن طريق فرض تعليمات خارجية بل على العكس من ذلك يمكن بلوغه فقط عن طريق كل فرد، الحاكم فضلاً عن المحكوم، مشتركين في التهذيب الذاتي طبقًا للقانون الطبيعي للحياة، أي قانون الواجب أو " طريق الواجب " كما يسميه كونفوشيوس.

إن " طريق الواجب "، فيما يرى ذلك كونفوشيوس، يلزم الإنسان الأسمى أن يتصرف لكي يجعل سلوكه في كل الأجيال قانونًا عالميًا. ونفس هذا المعنى سوف يتردد، بعد

ذلك في العصر الحديث، على لسان الفيلسوف الألماني " كانط " حيث يقول: إننا يجب أن "نعمل حتى يصير المثل الأعلى لسلوكنا قانونًا عالميًا" أو قانونًا عامًا للطبيعة.

أما الكتاب الثالث فهو " تشونج – يونج The chung yung " أو عقيدة الوسط، ويبدو أن الذي وضعه هو " كونج تشي Kung Chi، حفيد كونفوشيوس. ويعتبر هذا الكتاب من المؤلفات التي تحوي مذهبه، ويشتمل على مجموعة كبيرة من الآراء الأساسية في " أخلاق كونفوشيوس"

وأما الكتاب الرابع والأخير، فهو كتاب " منشيوس Book of Mencius، الذي يعد من أعظم تلاميذ كونفوشيوس. ويتكون هذا الكتاب من سبعة كتب، ويعد خاتمة الآداب الصينية القديمة.

وقد ظلت هذه " الكتب الأربعة " أعمدة التثقيف الصيني حتى إلغاء اختبارات الالتحاق بالوظائف العليا في البلاد عام ١٩٠٥م.

وعلى الرغم من أن مؤلفات كونفوشيوس التسعة تحتوي في الجزء الأكبر منها على مجموعة من الأمثال

والحكم المفصولة الواحدة منها عن الأخرى بحيث يتعذر علينا أن نعثر فيها على مذهب فلسفي متماسك الأجزاء، كما هو الحال في الفلسفة الأفلاطونية أو الأرسطية أو الكانتية أو الهيجلية التي تتميز بوجود نسق فلسفي شامل للكون والحياة والإنسان، إلا أن هذه الأمثلة السائرة والحكم غير المترابطة كافية مع ذلك لمعرفة اتجاه كونفوشيوس وتلاميذه بصدد الموضوعات العامة التي يتناولها أي مذهب فلسفي.

ولاشك أن تلاميذ كونفوشيوس ومريديه كان لهم فضل كبير في المحافظة على فلسفته ونقلها إلى الأجيال اللاحقة، وذلك على غرار ما فعل تلاميذ سقراط، وفي مقدمتهم أفلاطون وأرسطو، بفكر أستاذهم الذي لم يترك شيئًا مكتوبًا، وعلى ذلك كانت مؤلفاتهم عنه المصدر الوحيد لمعرفة فلسفته التي نجحوا في الحفاظ عليها و نقلها إلى الأجيال اللاحقة. وإذا كان أرسطو قد عرف، في تاريخ الفكر البشري، بأنه المعلم الأول، فإن كونفوشيوس، قد عرف بين أتباعه ومريديه ومريدي مريديه بأنه معلم الجنس البشري، بل أعظم معلم له أنجبته القرون، وعرفته البشرية.

التربية والتعليم عند كونفوشيوس

التربية والتعليم في الصين القديمة:

اهتم الصينيون القدماء بالتعليم والتربية اهتمامًا كبيرًا والدليل على هذا أنهم اعتبروا العلماء منهم أبطالهم المفضلين. لقد كان التعليم هو أفضل طريق للوصول إلى الثورة الاقتصادية والمكانة الاجتماعية والسلطة السياسية؛ ومن هنا كانت دعوة ملوك الصين، في العصر السحيق، الناس إلى شغل أوقاتهم بالتفكير والدراسة، باعتبار التعليم أهم عامل في سبيل نجاحهم في وضع نظام اجتماعي صالح وسليم.

وقد رأى الصينيون أن فائدة التعليم تشمل المتعلمين والمعلمين معًا، إذ يحاول المعلمون، عند قيامهم بمهمة تعليم الآخرين، تدارك أوجه النقص في معلوماتهم، وما يشوبها من أخطاء، فيعملون على تدارك هذا بتنمية معلوماتهم والاستزادة من المعرفة الصحيحة والعلم السليم.

وفي ذلك يقول المثلان الصينيان القديمان: " إن التدريس نصف التعليم" و " إن عملتي التعليم والتعلم تذكي كل منهما الأخرى ".

يتفق النظام التعليمي، سواءً في ذلك السابق على كونفوشيوس أو في عصر كونفوشيوس نفسه مع أحدث نظم التعليم السائدة في عصرنا الحالي [1] .

فلقد كان هذا النظام قائمًا على فتح كمدرسة ابتدائية في كل قرية يقطنها ٢٥ أسرة، ومدرسة ثانوية في كل مدينة يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ أسرة، وجامعة في كل مقاطعة يبلغ عدد سكانها ٢٥٠٠ أسرة. وكان دخول الجامعة مقصورًا على أبناء الطبقات الراقية من ملوك وأمراء ونبلاء ومن يظهرون كفاءةً وتفوقًا في المدارس الابتدائية والثانوية التي كانت مفتوحة لأبناء الطبقات الشعبية بلا تفرقة. وقد جاءت مراحل التعليم في هذا النظام التعليمي الصيني القديم ثلاثة على النحو التالي:

---

(١) انظر: د. حسن شحاته سعفان: كونفشيوس، النبي الصيني، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٦م، ص ٩٨ وما بعدها.

أولهـــا: المرحلة الابتدائية، وتبدأ من سن العاشرة حتى بلوغ التلميذ سن الثالثة عشرة. وفي هذه المرحلـــة يـــتعلم التلاميذ في المدرســـة الابتدائيـــة القـــراءة والكتابـــة والحســـــــــــــــــــــــــــــــاب، ولا يُعقَد امتحان لهم إلا في نهاية السنة الثالثة ويسمى مثل هذا لامتحان بالامتحان الكبير، وذلك تمييزًا لـــه عن الامتحانات الصغيرة التي كان المدرسون يقومون بها في نهاية بعض السنين للتأكد من أن التلاميذ قـــد استوعبوا الموضوعات الدراسية.

وثاني هذه المراحل، المرحلة الثانوية، وتبدأ من سن الثالثـــة عشرة حتى بلوغ الطالب سنة التاسعة عشرة، وهـــذه تنقسم إلى قسمين: فمن الثالثة عشـــرة إلـــى الســـابعة عشرة، يدرس التلاميذ الموسيقى والشـــعر والـــرقص وفن الرماية، ثم يعقد امتحان للطالب ليعـــرف مـــدى تفكيره وتكوينه العلمي وكان يمنح في هذا الامتحان " الـــــــــــــــدبلوم الصـــــــــــــــغير" أو " الشهادة الصغيرة " ثم يأتي القسم الثاني ويســـتمر عامين من السابعة عشرة إلى التاسعة عشرة، حيـــث

يعقد بعد حصوله على هذه الشهادة بسنتين، امتحان " الشهادة الكبيرة " الذي يفترض فيمن يجتازه أنه بلغ أعلى مرتبة في فهم الموضوعات المختلفة وفي الأخلاق، وينال الطالب هذه الشهادة في سن التاسعة عشرة.

وثالث هذه المراحل، المرحلة الجامعية وتبدأ من سن العشرين حتى قبيل سن الثلاثين: وتستمر مرحلة التعليم الجامعي هذه المدة الطويلة وغير المحددة في أحيان كثيرة؛ لأن المفروض أن الإنسان يظل طوال حياته يتعلم، وذلك " كالنملة التي تظل طيلة حياتها تعمل ".

ويدرس الطلاب، في الجامعة، موضوعات الطبيعة والموسيقى في بعض الأغاني وقيادة العربات والطقوس والعادات والتقاليد. ويبدو أن دراسة الطلاب لكثير من الأغاني التي تتناول موضوعات مختلفة، وبما في هذه الأغاني من وزن وقافية كان الهدف منه مساعدة الطلاب على استيعاب المعلومات وحفظ المواد المختلفة، وذلك يذكرنا بما كانت عليه الحال في العصور القديمة والعصور الوسطى

المسيحية والإسلامية عندما كانت الموضوعات المختلفة تنظم في مقطوعات طويلة كالإلياذة والأوديسة مثلاً أو ألفية ابن مالك، لأن صياغة المعلومات في أسلوب شعري من شأنه أن يساعد الطالب على استيعاب المعلومات وحفظها وكان يعلن عن بدء الحصص ونهايتها بدق الطبول؛ حتى يعود الطلبة على النظام.

وكان التعليم الجامعي يستمر في الغالب، حتى قبيل سن الثلاثين، وهي سن الزواج بالنسبة للشبان، أمَّا سن الزواج بالنسبة للبنات، فكانت سن العشرين أو " الثالثة والعشرين على أكثر تقدير ".

وكان المفروض في التعليم الجامعي أنه كان يعطى لأشخاص قد تركوا سن التلمذة، وأصبحوا يعملون فعلاً، ويستهدف هذا التعليم، إذن، تثبيت معلوماتهم، ومدهم بالدارسات التي يحتاجون إليها في الوظيفة أو المهنة التي امتهنوها.

وكان على الأساتذة، في المدارس المختلفة والجامعات، أن يستخدموا العصا، لتأديب الطلبة ولتنظيم سلوكهم، وذلك يذكرنا بما نادى به حكيم مصر القديم

" بتاح حتب " الذي ظهر حوالي عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد، عندما أوجب استخدام العصا في التعليم والتربية. وكان الأستاذ يترك لطلبته، في المحاضرات، الفرصة للتفكير وتكوين معلوماتهم بأنفسهم، ومتحاشيًا بذلك الكلام كل الوقت. أما مهمة السؤال، فقد كان مسموحًا بها للطلبة الجامعيين الكبار، دون الصغار؛ وذلك حتى يعرف كل فرد مكانه في السلم الاجتماعي، ويتعود على احترام من هو أكبر منه.

تلك هي بعض قواعد النظام التعليمي التربوي التي كانت تسود التعليم في العصور السحيقة السابقة على كونفوشيوس، والتي كان يؤيدها كونفوشيوس، ويريد تطبيقها من جديد في أيامه.

فلسفة كونفشيوس في التربية المثالية والمعلم المثالي:

أولى كونفوشيوس اهتمامه، شطر تثقيف الشباب، وتربيتهم التربية المثالية السليمة التي تؤهلهم للاضطلاع بمستقبلهم كرجال دولة.

وكانت آراؤه عديدة وجريئة خاصة ما يتعلق منها بإصلاح العالم فاجتذبت بسحرها، إلى حلقته الدراسية عددًا من الأشخاص أصبحوا تلاميذه وكان بعضهم يصغرونه، ببضع سنوات، ومنه ومن هذه المجموعة من تلاميذه ومريديه تشكلت للدراسات العليا، أول مدرسة حرة خاصة في تاريخ الصين. وكانت المدارس وقتذاك ملحقة بقصور الحكام والأرستقراطيين (النبلاء) و يتعلم فيها أبناؤهم لتدريبهم على فنون الحكم وشغل الوظائف العامة في الدولة.

وإذا كانت عملية التثقيف في مدرسة كونفوشيوس تتفق مع مدارس الأرستقراطية من ناحية تهيئة الدارس ليكون موظفًا حكوميًا، إلا أن الغاية من التدريس انصبت في الحالة الأولى على تنشئة الدارس تنشئة أخلاقية وتنمية مداركه العقلية ليلعب دورًا حيويًا مؤثرًا في الحكمة التي قد يشترك فيها، بإخضاعه لخدمة احتياجات الشعب، في حين اتجهت غاية التثقيف في المدارس الأرستقراطية إلى تمكين موظف الدولة من مباشرة أعمال تقليدية معينة تخدم أهداف

الحاكم، وبذلك يتحول الموظف في هذه الحالة إلى مجرد أداة طيِّعة في يدي صاحب السلطان [1].

ولما كان قد أخذ على عاتقه تحويل رجال من أصول فقيرة متواضعة إلى " سادة أماجد نبلاء" قادرين على التصرف في المحافل ودواوين الحكومة تصرف النبلاء ذوي الأصول العريقة، حرص على تعليمهم قواعد اللياقة والمجاملة وآدابها، وأساليب الرسميات؛ لأنها تعتمد على الشرف، والاعتزاز بالكرامة والحياء والتثقيف الذاتي وتقديس تقاليد الأجداد النبيلة.

كان كونفوشيوس يزدري دائمًا الفصاحة وزخرف القول، وليست هناك أية مصادر صينية تثبت أنه ألقى محاضرة عامة. ولكن على الرغم من ذلك فقد كان يتمتع بقوة إقناع خارقة إذا ما تحدث إلى فرد واحد أو إلى مجموعة صغيرة. ونستطيع أن نشعر بجاذبية شخصيته من خلال أقواله وآرائه الجريئة في إصلاح العالم، التي كان يوجهها إلى أولئك الذين كان يتصل بهم. وقد اجتذب نحوه تدريجيًا

---

(١) انظر: كريل (هـ. ج): الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي – تونج، ص ٤٧ – ٤٩.

عددًا من الناس أصبحوا أتباعه ومريديه، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، ونشأت بينه وبينهم صلات ود وثيقة [1] .

وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهيًا لا يلجأ فيه إلى الكتابة، وكانت الحوادث التي تصادفه هو وتلاميذه أثناء التنقل من إقليم إلى إقليم هي التي توحي بموضوع الحديث وكان كونفوشيوس يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرِّض بأخطائهم في رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة والانتباه. ومن أقواله في هذا المعنى: " إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول: ماذا أرى في هذا؟ فأني لا أستطيع أن أفعل له شيئًا " [2] .

وكان كونفوشيوس معلمًا من الطراز الأول، يعتقد أن التنائي عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم. وكان شديد المراعاة للمراسم. وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه. وكان يبذل ما في وسعه للحد من قوة الغرائز والشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة

---

(١) انظر: كونفوشيوس: كتاب الحوار، نقله للمرة الأولى إلى اللغة العربية عن اللغة الصينية مباشرة الأستاذ/ محمد مكين (الصيني الأصل)، المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٥٤ هـ، ص ١٥٥.

(١) راجع أيضا: كونفوشيوس، كتاب الحوار، ص ٦٤

الصارمة. وقال مرة: " قد أكون في الأدب مساويًا لغيري من الناس، ولكن (خلق) الرجل الأسمى أو الماجد، الذي لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد ". (١)

ويقول عنه تلاميذه: " كان المعلم مبرأً من أربعة عيوب: كان لا يجادل وفي عقله رأي سابق، ولا يتحكم في الناس ويفرض عليهم عقائدهم، ولم يكن عنيدًا، ولا أنانيًا" (٢).

وقد وصف نفسه بأنه مجرد ناقل وليس مبدعًا، وأراد أن يقدم للناس خلاصة سهلة مفهومة لكل ما تعلمه من قدماء المفكرين، وكان يؤثر القراءة والاطلاع على الطعام والراحة والنوم. وقد آل على نفسه القضاء على شرور أربعة: عقلية مغرضة، أحكام جائرة، العناد، الأنانية.

إننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن كونفشيوس كان متواضعًا في عظمته وكبريائه.

والمعرفة، عند كونفوشيوس، اكتسابية وليست إلهامية وقد أكدَّ ذلك في عدة مناسبات، فقد كان يقول إنه ليس شخصًا

---

(٢) ديورانت: قصة الحضارة، ٤٤/٤، كونفوشيوس: كتاب الحوار، ص ٧١

(١) انظر: كونفوشيوس: كتاب الحوار، ص ٨٢.

" ولد عارفًا للحقيقة "، وإنما مصدر معرفتـــه هـــو القـــراءة والدراسة الكثيفة والملاحظة. لقد كان دائم الملاحظة لرفـــاق دربه، فيأخذ ما هو صالح عند أحدهم، ويمعن فيما هو سيء عند آخر ليصون نفسه عن إتيانه. إن الإنسان يولد والمعرفة ممتنعة عليه فيما يرى ذلك كونفوشيوس، فهو يولد جاهلاً أية معلومات أو حقائق علمية؛ لأن عقله في هذه الحالة أشبه ما يكون بالصفحة البيضاء، وعليه بعد ذلك أن يجتهد في معرفة هذه الحقائق عن طريق الدراسة والبحث والتحصيل.

ولكن كونفوشيوس، يشير من ناحية أخرى في كتاب " المنتخبات " إلى وجود نوعين من الحكماء: " أولئك الـــذين ولدوا وهم ذوو معرفة " ألهمتهم بها الســـماء، دون مجهـــود شخصي من جانبهم، وبغير أن يكونوا على وعي بمعرفتهم، وهؤلاء الحكماء الموحى إليهم هم الأفضل. أما النوع الثـــاني من الحكماء، فهم أولئك الذين يتعلمون ويعملون على كســـب الحكمة بدارساتهم المتواصلة الاجتهادية،وهؤلاء، في نظـــره، هم أبناء الأرض، الموكل إليهم عـــن طريـــق مجهـــوداتهم الخاصة، حماية أنفسهم من الهوى والشر. فإذا نجحوا في هذا

اقتربوا من درجة الحكماء الملهمين أبناء السماء، المشـــتملين على الأسرار الإلهية العظيمة.

ويرى أن حكمة وجود الحكماء الموحى إلـــيهم هـــي إبلاغ قانون السماء، وهداية البشر، وإنقاذهم من الخروج عن الصراط السوي. ومن أقواله: " أولئك الذين يولدون حكمـــاء أسمى أنواع الناس، ويتلوهم من ينالون الحكمـــة بالدراســـة والاطلاع، ويتبعهم من يتغلبون على بلادتهم بالاطلاع. أمَّـــا من يظلون على بلادتهم فأوطأ الناس " (١).

وعلى الرغم من هذا فقد حرص كونفوشيوس علـــى أن يكون مصدر معرفته هو الدراسة والبحث، وليس التأمـــل النظري أو الإلهام؛ لأن محب العلم يتعلم كل يوم ما ينقصه، ولأن طريق العلم طريق شاق، لا يغني فيـــه التفكيـــر عـــن التعلم، كما أن الـــتعلم لا يجـــدي بـــدون تفكيـــر فكلاهمـــا لا يفترقان. وبتعبير آخر: إن التفكير دون تعلم خطر وملل كما أن التعلم دون تفكير عدم.

ومن أقواله في هذا: " كنت لا آكل طول النهـــار، ولا أنام طول الليل لأعمل فكري، وما وجدت لذلك فائدة، بل

---

(١) كونفوشيوس: كتاب الحوار، ١٦٣

الأفضل هو التعلم " [1]، " اطلب العلم بالتوسع ولتكن همتك صادقة، واستفسر عما يعينك وفكر فيما يقربك فإن في ذلك مروءة " [2]. كما يؤثر عنه فيه هذا الموضوع قوله:

" صرت مكبًا على العلم وأنا ابن خمس عشرة، وأصبحت قائمًا به وأنا ابن ثلاثين، ولم أتشكك في حقائق الأشياء وأنا ابن أربعين، وعلمت القضاء والقدر وأنا ابن خمسين، وأمست أذني صاغية إلى الحق وأنا ابن ستين، وأذعنت لجميع ما تشاء نفسي ولم أتجاوز حد الاستقامة وأنا ابن سبعين " [3].

ومما يدل على حبه للعلم وغرامه بالمعرفة أنه قال ذات مرة: " كلما سرت مع رجلين وجدت لنفسي أستاذين: من له فضائل فهو قدوتي، ومن له رذائل فهو عبرتي "[4].

---

(٢) كونفوشيوس: كتاب الحوار، نقله للمرة الأولى إلى اللغة العربية عن اللغة الصينية مباشرة، الأستاذ محمد مكين (الصيني الأصل)، المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٥٤

(١) كونفوشيوس: كتاب الحوار، ص ١٨٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢

(٣) المصدر السابق، ص ٦٧.

وإذا كان كونفوشيوس قد آمن بمبدأ المساواة في التعليم، لتساوي الناس في الطبائع والغرائز، كما آمن أيضًا، بقدرتهم على التحصيل والتفكير، دون نظر إلى أجناسهم أو ألوانهم أو أوضاعهم الاجتماعية إلا أنه قد أقرَّ بالتفاوت بينهم في العقل والمعرفة والموهبة والتجربة. والدليل على هذا أن مدرسته كانت تضم تلاميذ من مختلف الطبقات الاجتماعية، من النبلاء ومن الفقراء معًا دون تفرقة طبقية بينهم، وكان يقول وهو يستقبلهم: " إنني لم أرفض قط أن أعلم أي شخص حتى لو جاءني مشيًا على الأقدام، دون أن يقدم شيئًا نظير تعليمه، أكثر من اللحم الجاف ".

وإذا كان كونفوشيوس قد اشتهر عنه الحياد، في هذا الأمر، إلا أنه لو كانت عنده مفاضلة بين طلابه، لكان من المحتمل أن تكون لمن هو أقل غنى. لقد امتدح أحد طلابه لأنه استطاع برغم ارتدائه الرداء المهلهل أن يقف جنبًا إلى جنب مع أولئك الذين كانوا يرتدون الفراء الثمين، دون أن يتملكه أدنى ارتباك".

وقد أصبح هذا الطالب، الذي يرتدي هنا رداءً مهلهلاً، فيما بعد موظفًا كبيرًا جدًا يشغل منصبًا هامًا من

أخطر مناصب البلاد، يمكن أن يتقلده شخص لم يتقلد منصبه عن وراثة [1].

ومعنى هذا أن التربية والتعليم، عنده لم تكن من أجل التربية والتعليم فحسب، بل كانت من أجل تحقيق غايات عملية تتمثل في تقلد الوظائف العامة، وحل جميع المشكلات السياسية وتحقيق المجتمع الكامل. لقد كان كونفوشيوس يعد طلابه لينطلقوا إلى العالم ويكافحوا من أجل مبادئه التي تهدف إلى إقامة المجتمع الكامل.

إن معيار قيمة الإنسان ونفعه، فيما يرى ذلك كونفوشيوس، هو قدرته على توظيف معارفه لخدمة الغايات الاجتماعية، وتطبيق هذه المعارف في أداء رسالته إذا ما أرسل سفيرًا إلى الخارج، على سبيل المثال، ومن هنا حرص على تعليم طلابه علوم التاريخ والشعر والآداب العامة والفلسفة، وجهد أن يستبعد من برامجه الدراسية الموضوعات المتعلقة بالخرافات والأعاجيب. وخوارق الطبيعة وتمجيد البطولة الجسدية وما شابه ذلك مما لا يفيد في التطبيق

---

(١) انظر: كريل: الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي – تونج، ص ٤٨، وكونفوشيوس : الحوار، ص ٨٩.

العملي، الذي هو غاية التعلم والتثقيف الذاتي. وفي هذا المقام يقول: " لا تهتم بعدم المنصب، بل اهتم بما يؤهلك للمنصب، ولا تهتم بجهل الناس قدرك بل اهتم بالقدر الذي يعرفونك به"[1].

ولكن بالمقابل لولا التعلم والتربية لأصبحت الفضائل الأخلاقية رذائل ذميمة، بسبب الإفراط والتفريط، وانحطت على الفور: فبدون التعلم و التربية تصبح الشجاعة عصيانًا، والصراحة خشونة وسماجة، والذكاء اضطرابًا للفكر، والوفاء لا مبالاة بعاقبة الأمور، والمروءة جهالة، والحكمة عدم اتساق، والإنسانية بهيمية. ومن أقواله في هذا المعنى: " الولوع بالمروءة من غير الولوع بالتعلم نتيجته الجهالة، والولوع بالذكاء من غير الولوع بالتعلم نتيجته اضطراب الفكر، والولوع بالوفاء من غير الولوع بالتعلم نتيجته عدم الاكتراث لعاقبه الأمور، والولوع بالصراحة من غير الولوع بالتعلم نتيجته الخشونة، والولوع بالشجاعة من غير الولوع

---

(١) كونفوشيوس: كتاب الحوار، ص ٤٠

بالتعلم نتيجته العصيان، والولوع بالعزيمة من غير الولـــوع بالتعلم نتيجته الإفراط في السلوك " [1]

ولعل هذا يوضح لنا جوهر التربية الكونفوشيوســـية ومناطها أن تكون للقاعدة الخلقية المنزلة الأولى، وأن الطالب لا يستطيع التعلم قبل أن ينجح في تحويل سلوكه إلى ســـلوك أخلاقي، يتمثل في حب والديه وإخوانه، وأن يكون شـــجاعًا صادقًا صريحًا. ومن ساء سلوكه عجز عن بلـــوغ جـــوهر التعليم. وقد حرص كونفوشيوس في هذا كله، على أن يؤكـــد للأشياء طابعها الأصيل من حيـــث الاعتـــدال، والتـــوازن، والتناسق، والتنظيم وفقًا للمنزلة.

بعد أن أعلن كونفوشيوس تأييـــده للنظـــام التربـــوي التعليمي الذي كان سائدًا في الصين القديمة، بدأ بنقـــد حالـــة التعليم في أيامه، فهو يرثي لحال المدرسين في زمانـــه[2] إذ يعمدون باستمرار إلى تكرار وإعادة تدريس ما درَّسوه بشكل مضحك، وإلى الإثقال على الطلبة بكثرة الأسئلة. كما أنهم لم

---

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٠.

(١) الدكتور حسن شحاته سعفان: كونفوشيوس، النبـــي الصـــيني، ص ١٠٠- ١٠٣.

يعودوا يبذلون أي جهد للتعرف على ميول الطالب الطبيعية وتوجهيه الوجهة الملائمة لميوله ومقدراته؛ مما أدى بالطلبة إلى التخصص في أمور لا تناسب كفاءتهم ومقدرتهم، وضاع بالتالي كل ما كانوا ينتظرون من آمال يعلقونها على طلبتهم، ونتج عن ذلك شيوع الكراهية بين الطلبة والأساتذة، وتحوُّل الطلبة إلى آلات صماء تحفظ الدروس بلا فهم، مما أدى إلى كرههم للتعليم، وتحولهم عنه في أية فرصة تسمح لهم بذلك. وهذه كلها أسباب أدت إلى فشل التعليم في أيامه.

وينتقل من هذه المرحلة النقدية إلى عرض آرائه عن المعلم والتعليم المثاليين، ويضع كونفوشيوس لذلك أربع قواعد هامة:

١- يجب على المعلم أن يمنع العادات القبيحة قبل أن يكتسبها الطالب، وتصبح سلوكًا عاديًا. ذلك أن محاولة القضاء على عادة من العادات بعد أن تكون قد تكونت، محاولة فاشلة في أغلب الأحيان.

٢- يجب أن تُعطَى المعلومات في السن الملائمة لها. إذ إن تعليم مادة خاصة بسن معينة بعد فوات السن المناسبة تعليم عديم الجدوى.

٣- يجب التدرج في إعطاء المعلومات، بحيث يبدأ المعلم بالسهل وينتهي بالصعب. فالمعلومات إذا لم تعطَ في تدرج وتسلسل فإن هذا من شأنه أن يوجد البلبلة والتشويش في عقلية الطلبة ومعلوماتهم.

٤- يجب أن تُعطَى المعلومات للطلبة مجتمعين لا فرادى؛ بهدف إثارة التنافس بينهم وتشجيع المجتهدين. ثم إن تعليم طالب وحده منعزلاً عن بقية زملائه من شأنه أن يعمل على تضييق أفق تفكيره ويجعل معلوماته ضئيلة.

وتضاف إلى هذه القواعد الأربع قاعدتان تكميليتان وهما تتلخصان في:

١- إلزام المعلم بمراقبة صحبة الطالب لمنعه من مخالطة الأشرار.

٢- التأكد من أن الطالب يقضي وقت فراغه قضاءً يعود بالفائدة عليه جسميًا وعقليًا.

والمعلم المثالي هو الذي يعمل على توجيه طلبته توجيهًا رقيقًا دون أن يضغط عليهم، بحيث تصبح عملية التعلم عملية سهلة يعتمد فيها الطالب على نفسه. ويفكر بنفسه

دون الاستعانة بالآخرين. وعلى المعلم الناجح أن يراعي أن من بين طلبته من يحاول أن يجهد نفسه بحفظ كثير من الموضوعات ومنهم من لا يستطيع أن يستوعب إلا أجزاء صغيرة، ومنهم من هو سريع الحفظ للمعلومات، ومن هو بطيء سريع الملل بما يؤكد التفاوت بينهم في العقليات ومستوى الذكاء، ومن هنا فإن من واجبه العمل على مراعاة ظروف كل منهم، وتشجيع الطالب النابه وتنمية الصفات الجيدة فيه، وتشجيع الضعيف ومساعدته على علاج ضعفه.

كما يجب على المعلم الناجح أن يعرف كيف يوضح معلوماته وينقلها إلى الآخرين وكيف يفهمها لهم بالاستعانة بالأمثلة التوضيحية والمقارنات والتشبيهات لكي يثبت المعلومات في ذهن طلبته " فكما أن المغني الجيد يجعل الناس يرددون غناءه وينصتون إليه، كذلك المربي الجيد يجعل الناس يتبعون مثالياته ومذهبه، فأسلوبه واضح موجز، ملئ بالمعاني ". فإذا عرف المعلم كيف يكون مدرسًا جيدًا، استطاع أن يكون موجهًا وقائدًا ثم حاكمًا.

وعلى ذلك يجب على القائمين بشئون الحكم في الدولة أن يحسنوا اختيار المدرسين؛ لأن حسن هذا الاختيار من الأسس التي تؤدي إلى إقامة نظام سليم.

ولعل من أهم الصفات التي يجب أن تُراعَى في اختيار المدرسين الناجحين، هو أن يكون المدرس وقورًا، ذا شخصية تفرض احترام الناس وإجلالهم له؛ لأن هذا هو أساس اتباع الأفراد لتعاليمه وتوجيهاته وفي ذلك يقول: " إن لم يكن العالم وقورًا لم يكن له هيبة ولم يكن علمه متينًا"(١) .

ولذلك كان ملوك الصين القدامى يعتبرون كل الأفراد رعايا وتوابع لهم، ماعدا طبقتين من الناس، هما طبقة الأطفال المقدسين، وطبقة المدرسين. أما بالنسبة لطبقة الأطفال المقدسين فقد كان الملوك ينظرون إليهم على أنهم مقدسون؛ إذ كان من التقاليد المتبعة عند إقامة الطقوس الخاصة بتشييع جنازة المتوفى أو بتخليد ذكراه، أن يختار طفل يمثل روح المتوفي لكي تقام أمامه هذه الطقوس، ويعامل كما لو كان هو نفسه الشخص المتوفي، وبما أن

---

(١) كونفوشيوس: كتاب الحوار، ص ١٨

أرواح الموتى مقدسة، كذلك كان مثل هذا الطفل مقدس؛ لأنه يمثلها. أما الطبقة الثانية، فكانت طبقة المدرسين، التي لم تكن تعامل معاملة الرعايا والتوابع، شأنها في ذلك شأن طبقة الأطفال المقدسين. إذ كان من التقاليد المتبعة في الصين أن المدرس مساوٍ للملك، بفضل سمو المهمة التي يقوم بها، وما تستلزمه من احترام خاص. ولذلك كان المدرسون هم الطبقة الوحيدة التي كان مسموحًا لها أن تقف أمام الملك وجهًا لوجه عند تلقي الأوامر والتوجيهات الملكية، وذلك بخلاف أفراد الشعب الآخرين بما فيهم الأمراء والنبلاء والوزراء والعظماء الذين كان عليهم أن يديروا وجوههم جهة الشمال في حضرة الملك؛ احترامًا وتقديرًا لذاته، وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على إمعان الملوك في الصين القديمة في احترام المعلم وإجلاله.

ولا شك في أن آراء كونفوشيوس في المعلم والتعليم المثاليين، تتفق في جزء كبير منها مع ما تذهب إليه كثير من النظريات التربوية الحديثة. (١)

---

(١) انظر في هذا:

M. Granet: La Pensèe Chinoise, Paris, ١٩٣٤.

وكان كونفوشيوس، في منهجه التعليمي، يحرص دائمًا على إرشاد تلاميذه إلى الحقيقة عن طريق البحث الشخصي الذي يتدرج من المحسوسات إلى المعقولات، ويصعد من الماديات إلى المعنويات، مشيرًا في هذا إلى برهان الحق وإلى تناقض الباطل معه إشارة غامضة، ثم يساعدهم بعد ذلك، وعن طريق المحاورة، في أن يصلوا إلى الحق بأنفسهم، ويتبينوا الباطل فيجتنبوه.

ومن منهجه أيضًا أنه كان يستخدم المنهج القياسي، وهو المنهج المنطقي المعروف الذي يقوم على البدء بمقدمات أو مبادئ أولية مسلم بها، ثم استخلاص نتيجة تنتج عنها بالضرورة. ولا يختلف كونفوشيوس هنا في تعريفه للقياس عن التعريف الذي يقدمه أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق. م) من بعد ذلك بنحو قرنين من الزمان، للقياس في " التحليلات الأولى"[١]. ويمكننا، من هذه الناحية، أن نعتبر كونفوشيوس أول مفكر، في تاريخ الفكر البشري، استخدم المنهج القياسي في التفرقة بين الصواب والخطأ من الآراء،

---

(١) راجع: الدكتور عبد الرحمن بدوي: منطق أرسطو، الترجمات العربية القديمة، دار المطبوعات بالكويت، ١٩٨٠م، ١٤٢/١

وهو في هذا يعد سابقًا، بحوالي قرنين من الزمان، للفيلسوف اليوناني الشهير (أرسطو)، الذي شاع عنه أنه أول قائل بهذا المنهج.بل زاد كونفوشيوس على ذلك بأن كان يلجأ في معظم الأحيان، إلى منهج القياس المتتابع، وهو يقوم على عدة أقيسة متتابعة يتخذ كل منها مقدمته من النتيجة التي انتهى إليها القياس السابق عليه. وقد سيطر هذا المنهج المنطقي على أسلوبه في معظم كتاباته وخطبه، واستخدمه في تعليم طلبته الأخلاق والأدب والفن والفلسفة [1]

ونسوق بعض الأمثلة التي توضح أسلوبه في القياس المتتابع والتفكير المتدرج. يقول كونفوشيوس عن الصفات الأخلاقية مثل الشجاعة والصدق وحب العلم والإخلاص والاستقامة وحب الإنسانية:

" إذا فهم الإنسان طبيعة هذه الصفات الأخلاقية فإنه سيفهم كيف ينظم سلوكه الفردي وأخلاقه، وإذا فهم كيف

---

(١) انظر:

- Giles (H.A): History of Chinese Literature, London ١٩٠١

- Pauthier (M.G): Doctrine de Confucius, Paris.

والدكتور: حسن سعفان: كونفوشيوس، ص ١٠٥، ١٠٨

ينظم سلوكه الفردي وأخلاقه فإنه سيفهم كيف يحكم الناس، وإذا فهم كيف يحكم الناس فإنه سيفهم كيف يحكم الأمم والإمبراطوريات ".

ويقول عن الصدق أو الحق المطلق، الذي يعني به هنا الله: " إن الحق المطلق غير قابل للتحطيم، ولما كان غير قابل للتحطيم فهو خالد، ولما كان خالدًا فإنه موجود بذاته، ولما كان موجودًا بذاته فهولا نهائي، ولما كان لا نهائيًا فهو واسع عميق، ولما كان واسعًا عميقًا فهو متعالٍ روحي ".

ويصف الطريق السليم الذي يسلكه الحاكم حتى يكون حكمه فاضلاً، ويكون ذلك بأن يعمل على تطهير قلبه وتهذيب نفسه، وتثقيف ذاته، وأن يحسن في تأدية واجباته نحو أقاربه، ومعرفة طبيعة المجتمع الإنساني والقواعد التي يقوم عليها التنظيم الاجتماعي، ولكي يتأتى له معرفة ذلك عليه أن يسعى إلى معرفة القوانين الإلهية المنظمة لأمور الكون؛ لأن القوانين الوضعية هي التي تؤدي إلى فساد الحكم، وإشعال نار الحرب بين الدول. أما المعرفة الصحيحة، فيما يرى ذلك كونفوشيوس فهي التي تؤدي وحدها إلى إيجاد الرجل الناجح السعيد، ومن ثم العائلة

الصالحة، وهي التي تخرج الحكومة العادلة وتعمل في النهاية على توفير الحياة السعيدة المستقرة، وخلق عالم تسوده العدالة والمحبة والسلام. يقول كونفوشيوس في وصف طريق الحاكم الصالح: " ولا مناص للرجل الذي ينتمي إلى طبقة الحكام من أن ينظم سلوكه وأخلاقه، وفي سبيل تنظيم سلوكه وأخلاقه عليه أن يؤدي واجباته نحو ذوي القربى، وفي سبيل تأدية واجباته نحو ذوي قرباه عليه أن يفهم طبيعة المجتمع الإنساني والقواعد التي يقوم عليها التنظيم الاجتماعي، وفي سبيل فهمه لطبيعة المجتمع الإنساني والقواعد التي يقوم عليها التنظيم الاجتماعي عليه أن يفهم القوانين الإلهية ".

الأخلاق عند كونفوشيوس

انشأ كونفوشيوس نظامًا أخلاقيًا جديدًا، معتمدًا في ذلك على الكتب الصينية القديمة، خاصة كتاب " الطقوس " وكتاب " الأغاني " وكتاب " التاريخ "، مع تأويل لغتها العتيقة تأويلاً معاصرًا. وقد ظل هذا النظام موضع احترام الصينيين وإجلالهم في جميع أرجاء البلاد، وبقي يؤثر فيهم حتى وقتنا المعاصر. ولقد كانت الأخلاق همه الأول، وكان يرى أن المصائب والشرور التي تسود عصره مصائب وشرور أخلاقية نشأت من ضعف الوازع الأخلاقي، وعلاجها هو: العودة إلى الفضيلة، وتجديد الأخلاق تجديدًا يقوم على تنظيم حياة الأسرة، وسلوك الأفراد بعضهم بإزاء بعض على أساس صالح قويم. إن السبيل الوحيد لاتقاء الشر والظلم والكراهية والعنف والقسوة إنما يكون، فيما يرى كونفوشيوس، بالعودة إلى الفضيلة الكاملة، والإيمان إيمانا تامًا. وبتعبير أكثر إيجازًا يجب أن تكون الأخلاق هي الجوهر الأساسي العملي للشعب، وأن سياسة الدولة لا تنجح نجاحًا حقيقيًا إلا إذا أسست على الأخلاق.

إنسانية الأخلاق الكونفوشيوسية:

وتتميز الأخلاق عند كونفوشيوس بالمطلقية والنسبية، بالأصالة والتطور. فإذا كان الله هو مصدر القانون الأخلاقي، فإن جوهره الصحيح وكيانه الحقيقي يوجدان في كل منا بشكل كامل، ولا يمكن لهذا القانون الأخلاقي أن ينفصل عنا بأي حال من الأحوال. ومعنى هذا أن المطلق ينبجس في النسبي، وينخرط في نسبية الظواهر. ولكن لمَّا كان هذا القانون الأخلاقي صعب المنال، لا يستطيع أن يصل إليه لا عامة الناس، ولا حتى فضلائهم، أصبح لزامًا علينا أن نتخذ الناس وأفعالهم الإنسانية معايير أو مقاييس بعضهم لبعض. ويعني هذا أن الإنسان هو مقياس الأخلاق، وذلك بالنظر إلى صعوبة اتخاذ القانون الإلهي مقياسًا لهذه الأخلاق، وما يترتب على هذا من انعدام وجود فضلاء أو أفراد مثاليين. ولكن هذه الأخلاق، رغمًا عن هذا، اعتبرت الأخلاق المثالية أقرب دنوًا من هذا القانون. ويعبر كونفوشيوس عن هذه المعاني فيقول:

" إن الإنسانية الصحيحة (الفضيلة) تتطلب قدرة جبَّارة، والطريق إليها صعب المنال. فأنت لا تستطيع أن

تلمسها بالأصابع ولا أن تصل إليها سيرًا على الأقدام، وعلى ذلك فالفرد الذي يستطيع أن يقترب منها أكثر من الآخرين يعتبر فاضلاً. ومن ثم إذا قاس الإنسان الناس بمقياس الفضيلة المطلق فسيكون من المستحيل أن نجد شخصًا فاضلاً. ولكنه إذا قاس الناس بعضهم ببعض فإن الأفضل منهم يعتبر مقياسًا لغيره " (١).

ومعنى هذا أن الأفراد الذين يقتربون من هذا المعيار أو المقياس أو القانون الأخلاقي أكثر من غيرهم يعتبرون فضلاء؛ ومن ثم يعتبرون مقاييس للأخلاق الفاضلة لسلوك غيرهم من الأفراد.

وعلى الرغم من قوة المعتقد الديني لكونفوشيوس، إلا أنه لم يتخذه أساسًا لفكره خاصة الفكر الأخلاقي منه، وإنما آثر فصل الأخلاق عن عالم " ما بعد الطبيعة "، وصرف الأنظار عن خوارق الطبيعة والغيبيات، وأعطى، في مقابل ذلك، اهتمامًا أكبر للعالم الدنيوي، ولمشكلات المجتمع البشري الجوهرية، ولرسم العلاقات التي يجب أن تسود بين أفراد هذا المجتمع. لقد وضع أخلاقياته على أساس طبيعة

---

(١) كتاب الطقوس ٣٢.

الإنسان والمجتمع، واعتبرهما مصدر المثل العليا والمعـــايير الأخلاقية.

ومما يؤكد عمق البعد الإنساني في الأخـــلاق عنـــد كونفوشيوس، واعتبار طبيعة الإنسان وإمكانيات هذه الطبيعة معايير لهذه الأخلاق قوله في هذا الشأن:

" إن الطريق الصحيح أو قاعدة السلوك السليم التـــى على الأفراد اتباعها ليست ببعيـــدة عـــنهم؛ لأن الأفـــراد إذا استنوا قاعدة للسلوك بعيدة عنهم، فمعنى ذلك أنهـــا لا تتفـــق وطبيعتهم الإنسانية، وكل قاعدة للسلوك الأخلاقي تتنافى مـــع الطبيعة الإنسانية يجب استبعادها وعدم الأخذ بها " (١).

ويقول أيضا: " إن الإنسان هو الذي يجعل الصـــدق عظيمًا، وليس الصدق هو الذي يجعل الإنسان عظيمًا ".

فالإنسان، إذن هو مصدر القيم، ومقيـــاس الأخـــلاق الفاضلة، والذي يجعل الناس مقاييس ومعايير بعضهم لبعض هو أن الطبيعة الإنسانية، وما تتميز به من عواطف وأفكـــار ومشاعر وانفعالات، واحدة في كل فرد مـــن أفـــراد النـــوع الإنساني، فيما يرى ذلك كونفوشيوس. فما يصدق على فـــرد

---

(١) كتاب الطقوس (الانسجام المركزي) الفصل ١٣

يصدق على كل الأفراد، وما يشعر به إنسان يشعر به الناس جميعًا.

وبناءً على وجود مثل هذه الطبيعة الإنسانية الواحدة في كل فرد من الأفراد، يجب، إذن، على " الإنسان ألا يعامل الناس بما لا يرضى أن يُعامَل به [1] ".

الطبيعة الإنسانية:

أقرَّ كونفوشيوس القول بخيرية الطبيعة الإنسانية، وأن الإنسان خيِّر بطبعه، يبحث دائمًا عن الخير ومعاييره. ومما قاله في هذا المعنى:

" إن الناس يولدون خيِّرين سواسية بطبيعتهم، ولكنهم كلما شبوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجيًا وفق ما يكتسب من عادات " [2]. ويقول أيضا: " إن الطبيعة الإنسانية مستقيمة، فإذا افتقد الإنسان هذه الاستقامة أثناء حياته افتقد معها السعادة"[4]. ويرى أن سبيلنا إلى الأفعال الخيِّرة هو

---

(١) كتاب الحوار: ١٢/١١٢

(٢) كتاب الطقوس، فصل ٣٢

تمسكنا بالقانون الأخلاقي الإلهي الذي يحقق صلاح الفرد والمجتمع.

وإذا كان الناس، بطبيعتهم، خيِّرين صالحين مستقيمين، فإن الحيوانات، في مقابل ذلك، ذات طبائع شريرة؛ ولذلك اعتقد الكونفوشيون أن الأشرار من طبيعة حيوانية غير مستقيمة.

ونلحظ هنا تشابهًا كبيرًا بين فكر كونفوشيوس، وفكر جان جاك روسو (١٧١٢- ١٧٧٨ م). الذي ظهر في العصر الحديث، وأقرَّ هو الآخر خيرية الإنسان واستقامته الفطرية، وأن المدينة لم تفعل شيئًا سوى أنها سلبت الإنسان حريته، وأفسدت خيريته عندما قيدته بالقوانين والواجبات، وقد تحسَّر روسو على أيام البشرية الأولى، عندما كان الإنسان يسير على أربع، وتمنى عودة هذه الأيام.

وتلعب التربية، إلى جانب الموسيقى عند كونفوشيوس، دورًا كبيرًا في إزالة صدأ النفوس، وما علق بها من أدران الشر، كما تعملان على تهذيب النفوس، وتجميلها بالفضائل حتى تعود إلى طبيعتها الخيِّرة الأولى.

مما سبق يتبين أن نظام كونفوشيوس الأخلاقي يقوم على الفهم الكامل للطبيعة الإنسانية، من حيث كونها طبيعة عاقلة واجتماعية، مع ملاحظة أنه:

أولاً: لا يعتبر الفرد كائنًا مستقلاً عن المجتمع، أو يعيش بمعزل عنه.

ثانيًا: لا يُنظَر إلى المجتمع كنوع من الكيان الميتافيزيقي الذي يلغي وجوده وجود الفرد، بحيث لا يصبح للفرد وجود ما لم يكن مندمجًا فيه تمام الاندماج.

وقد نشأت رؤية كونفوشيوس هذه من إيمانه بمبدأين هامين:

الأول: أن الأفراد مخلوقات اجتماعية، يلعب المجتمع دورًا كبيرًا في تشكيلهم إلى ما هم عليه. ولمَّا كان المجتمع من ناحية أخرى، يخضع لتأثير أفعال أفراده، كل وفقًا لاستعداده، فإن المجتمع يشكله الأفراد الذين يكونونه بالصورة التي هو عليها. فالتأثير والتأثر، متبادلان، إذًا، بين الفرد والمجتمع.

الثاني: استحالة انسحاب الفرد من المجتمع، نظرًا لما يتمتع به من يقظة ضمير تصده عن إتيان هذا الفعل الغريب عن طبيعته.

ويستنتج كونفوشيوس من هذين المبدأين، نتيجة هامة مفادها أنه من أكبر الأخطاء أن ينسحب الفرد من المجتمع، ويتحول إلى شخص انعزالي زاهد في الحياة، بل على كل فرد أن يحرص على أن يكون عضوًا مهمًا عاملاً في المجتمع، ونافعًا في نطاقه. يضاف إلى ما سبق أن على الفرد أن يحذر من أن يتحول إلى أسير للمجتمع يتبع أوضاعه وأعرافه المجافية لمنحاه الخلقي دون تفكير أو روية، بل الواجب عليه إذا ما بدا له أن ممارسة هذه الأعراف والتقاليد فيها فساد أو ضرر، أن يعمل على هداية المجتمع إلى الصواب وأن يدفع به إلى السير في الاتجاه السليم. أمَّا إذا كانت هذه الأعراف والتقاليد معقولة أو لا ضرر منها فعليه مجاراتها والعمل بها.

وإذا كان أرسطو الفيلسوف اليوناني، سوف يقرر من بعد ذلك، أن الإنسان كائن اجتماعي بفطرته، لا ينشد من

أفعاله إلا ما هو خير. فإننا سنجد عكس هذا القول تمامًا، في العصر الحديث، عند كل من ماكيافللي، وهوبز، واسبينوزا.

فطبيعة الإنسان عند المفكر الإيطالي (ماكيافللي) (١٤٦٩ – ١٥٢٧ م) ليست خيِّرة، ولكنها شريرة. ويرى أن البشر أنانيون، شرهون، نفعيون لا يعترفون بالجميل، وهم كاذبون ومنافقون، شريرون وخبثاء، وخبثهم هذا لا يزول مع الزمن، ولا يخف مقابل أي حسنة.

والإنسان في مذهب الفيلسوف الإنجليزي (توماس هوبز) (١٥٨٨ –١٦٧٩ م) ذئب لأخيه الإنسان، شرير بفطرته، أناني يؤثر مصلحته على كل اعتبار، ينفر بطبعه من الاجتماع بغيره من الناس. وكل فرد عنده في خشية أن يقضي عليه الآخر، ويرغب في تملك كل شيء على حساب الآخرين. والحياة هي حرب دائمة بين الفرد والفرد "، وبين " الكل والكل" فهي حرب من قبل "الجميع ضد الجميع "، حرب لا هوادة فيها ولا رحمة.

أما الفيلسوف الهولندي اسبينوزا (١٦٣٢ – ١٦٧٧ م)، فيرسم للإنسان صورة حقيرة بشعة، ولو أنها صورة خيالية محضة. وإنسان اسبينوزا. الطبيعي هو نوع من

الوحش لا يميز الخير من الشر، لا عقل ولا أدب له. أكثر من ذلك أن الإنسان عنده مع ارتقائه إلى الحياة المدنية، يظل منحطًا ميت الوعي في المجتمع، كما هو في حال الفطرة[1]. ومعنى هذا أن اسبينوزا يعد في عداد القائلين بشرِّية الطبيعة الإنسانية، خلافًا لما ذهب إليه حكيم الصين كونفوشيوس من حيث القول بخيرية هذه الطبيعة، وميلها الفطري إلى التوحيد بين الخير والجمال، إذ إن الجميل عنده ليس جميلاً دون أن يكون خيِّرا، وأن الخيِّر ليس بخيِّر دون أن يكون جميلاً، فالالتزامان الجمالي والخيري مرتبطان ولا تفريق بينهما.

الـ (لـى *Li*)= آداب اللياقة أو قواعد السلوك البشري الحميد:

وبما أن العُرف هو عصب المجتمع والرابط بين أجزائه برباط متين، فقد استخدم كونفوشيوس كلمة (لي Li) للتعبير عن مجموعة القيم والعادات الأخلاقية والأعراف

---

(١) انظر: مقدمة بارتلمي سانتهيلير لكتاب السياسة لأرسطو طاليس، ترجمة أحمد لطفي السيد، الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ص ٧٨ -٧٩.

الاجتماعية المتشابكة التي تحفظ للمجتمع تماسكه وتوازنه وتظهر شخصيته الحضارية، وتوفر للفرد الطمأنينة والسعادة. إن كلمة الـ (لي) تعنى حرفيًا قواعد السلوك وآداب اللياقة الاجتماعية المثالية، والطقوس والشعائر التي تخلو من التزمت والجمود، وتراعي الظروف والمناسبات الاجتماعية، وتتضمن التوقير والاحترام لمن تُجرَى لهم.

هذه العادات والأعراف والطقوس والشعائر، تتمثل في أنواع معينة من الطعام ينبغي أن يتناولها الناس في المناسبات المختلفة والمراحل المتباينة من الحياة، كما يعبر عنها أنواع الملابس التي ينبغي أن يرتديها الناس في الأيام المقدسة، وعدد الانحناءات التي ينبغي أن يؤدوها عندما يحيون بعضهم بعضًا، والطريقة التي يجب أن يسيروا في الشوارع، " فالرجال على الجانب الأيمن، والنساء على الجانب الأيسر " [1]

---

(١) انظر: دكتور هنري توماس: أعلام الفلاسفة، ترجمة متري أمين، ومراجعة الدكتور زكي نجيب محمود، دار النهضة العربية بمصر ١٩٦٤ ص ٥٨ – ٥٩

كما تتمثل الـ (لي) أيضا، في شعائر الزواج والولادة والوفاة والجنازة، وشتى أنواع الأضاحي والأعياد، وتنظيم العمل، و قوانين الضيافة، والقواعد التي تسير الحياة بمقتضاها في البلاط، وحياة المستخدمين.

لقد أصبحت الـ (لي) عند كونفوشيوس، شريعة كاملة للسلوك المهذب، " فهي تتحكم في ارتداء الثياب، وفي المراعاة الدقيقة للآداب الاجتماعية والأخلاق الحسنة، بصفة عامة، بل في التصرفات والإيماءات والإشارات بحيث يضاف المظهر الخارجي الملائم إلى السلوك الأخلاقي ".

ومن المعلوم أن الصينيين قد قدَّسوا آداب اللياقة وقواعد السلوك قبل كونفوشيوس بزمن بعيد؛ لأن الشعب الصيني كان ينقسم منذ قديم الزمان إلى طبقتين: طبقة النبلاء، وطبقة العامة. وفي الوقت الذي كان العامة في يخضعون للقانون المدني، كان النبلاء غير مقيدين بهذا القانون، بل يخضعون لقانون آداب اللياقة المتميز بالتقاليد العالية الموروثة عن المنازل النبيلة، وعن الأساتذة المبجلين العظام. ومن هنا كان احترام كونفوشيوس لهذه الآداب والطقوس والشعائر التي كانت تعد بمثابة قانون مدني مستمد

من القانون الأخلاقي العام الخالد غير المكتوب. وفي ذلك يقول أحد الباحثين:

" وتحت سطح التأكيدات الكونفوشية لدقائق الحياة اليومية، يكمن الاعتقاد القديم القائل بأن للطقوس نفسها قوتها السحرية " (١)

ولكن كونفوشيوس أسبغ على الـ (لي Li) دلالة معنوية، بفضلها يصبح الإنسان إنسانًا ممتلئًا بالقيم، ومتميزًا عن الحيوانات الضارية؛ إذ تجعل من الفلاح في كوخه شخصية بارزة لها كرامتها التي لا تقل بأية حال عن شخصية الملك في قصره. وهذا النظام الكونفوشي لقواعد السلوك وآداب اللياقة المشار باتباعها، حتى يعوِّد الناس أنفسهم على حب النظام والطاعة، جعل من الشعب الصيني واحدًا من أكثر الشعوب المدققة في الرسميات في التاريخ، كما أكد لكل فرد أنه يمتلك في ذاته قيمة لا متناهية، يمتلكها أيضًا الآخرون، وأعطى هذا النظام الشعب أيضًا، شعورًا باحترام الذات، وشعورًا باحترام الآخرين. إن الـ (لي) هو دليل رقي الإنسان وتحضره وتمدنه، ومن هنا احتل جانبًا

---

(١) بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٢٨٧

كبيرًا في برنامج كونفوشيوس التعليمي الذي يجمع ما بين التربية الثقافية والتربية الوجدانية لمساعدة الإنسان على مواجهة الأزمات والمغريات، وعلى أن يحتل مكانًا مرموقًا في المجتمع بوصفه عضوًا سعيدًا، ونافعًا لنفسه وللآخرين. " فبدلاً من الدعوة إلى طابع هزيل من إنكار الذات، كان يغرس في نفوس قومه مثلاً أعلى من الأنانية الذكية. وكان يرى أنه إذا اعتاد الإنسان أن يمد يد الكرم إلى الآخرين، فإنه بذلك يدخر من الكرم رأس مال لنفسه ففي آخر المطاف من عمل مثقال ذرة خيرًا يره " [1]. ومما قاله كونفوشيوس، أيضًا، في (المنتخبات أو كتاب الحوار، الفصل السادس ٥٩ – ٦٠): إن من الواجب أن ينظم تعليم النبيل عن طريق الـ (لي)، فإذا ما أُعِد شخص على هذه الصورة لمواجهة العالم، فإن له من القوة، على ما يعتقد، ما يمكنه من أن يتمسك بحق مبادئه خلال أية محنة وفي مواجهة كل إغراء".

---

(١) د. هنري توماس: أعلام الفلاسفة ٥٩.

فكرة الـــ (تاو *Tao* الطريق أو السبيل)

تقوم فلسفة كونفوشيوس، أيضًا، على فكرة غاية في الأهمية، وهي فكرة الـــ (تاو Tao) التي تعنى " الطريـــق أو السبيل " أو المنهج المؤدي إلـــى غايـــة ســـامية. وتقـــوم الأخلاق عنده على " التاو " لأنها إن لم ترتكز عليه مضـــت في عكس الطبيعة الإنســـانية. إن الأخـــلاق إذا اعتصـــمت (بالتاو) أصلحت ذاتها بذاتها، وتقدمت الفضيلة، وغمـــرت السعادة كافة الجنس البشري. ومن هنا فإن الـــ (تاو) عنـــد كونفوشيوس لا تحمل معنى صـــوفيًا، أو تتضـــمن ســـلوكًا انعزاليًا، وإن كان لا يغفل تمامًا المفهوم التصـــوفي لكلمـــة (تاو)، لأن الذي يستمع، عنده، للتاو في الصباح، يســـتطيع أن يسلم الروح، راضيًا، في المساء. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على اهتمامه بالكيف دون الكم، وأن " مقياس حياة الإنسان ليس كم طول عمره؟"، ولكن " كيف كان نصيبها من العطـــاء والصـــلاح". إن الإنســـان إذا ســـمع كلمـــة الـــــ (تاو = الطريق) وفهمها وعمل بها، تمكَّن من بلوغ أرقى درجات الرقي الأخلاقي، وتحولت حياته إلى حياة سعيدة.

ومن ناحية أخرى، يعني الطريق عنده، في بعض الأحيان، الاستقامة والحكمة. وقد نصح طلابه بأن يكون ولاؤهم للطريق، وحرص على مطالبتهم بأن يلتزموا به دون انحراف، واستجاب مجموعة منهم بالفعل لتعاليمه، فأعلنوا الحرب على الطغيان، وقدموا حياتهم دفاعًا عن المبادئ السامية وفداءً لها.

يظهر لنا واضحًا أن الـ (تاو Tao) تعني (الطريق الرئيسي) التي يجب أن يسلكها الأفراد لتحقيق السعادة للبشرية بأسرها في هذه الدنيا.

وإذا كانت كلمة الـ (لي Li) تعني المجاملة والأخلاق الفاضلة معًا، فإن فكرة (التاو) تتضمن هي الأخرى: دستور سلوك الفرد وقانونه الأخلاقي من ناحية، ومن ناحية أخرى: منهاج الحكومة الذي يضمن لكل فرد، في حالة تطبيقه، أعظم قدر من الرفاهية والسعادة.

الجن *Jen* قوام الأخلاق وروح الفضائل:

قوام الأخلاق الكونفوشية، هو الجين، الـذي يعنـى حرفيًا " كائنين بشريين " وبما يفيد، فـي نفـس الوقـت، أن وجود الإنسان هو وجود تواصل:

" فالواحد لأجل الآخر، أو الفرد للمجموعة ".

فإذا كانت الحيوانات تنظم الغرائز حياتها، فتتجمـع وتترابط، أو يهرب بعضها من بعض، دون تفكير واعٍ، فإن البشر ينشئون مجتمعاتهم بالتعاون بعضهم مع البعض الآخر، ملتزمين في هذا بالتزام واحـد، فـي مـا وراء الغرائـز، أن يكونوا بشرًا متواصلين متحـابين. وفـى ذلـك يقـول كونفوشيوس: " إن الإنسان ذا الأخلاق الكاملة (جين) هـو الذي يقدم التعب المضني على النافع اللذيذ، ولا يلتفت عنـد أداء الواجب إلى ما يستفيده منه. إن شرط كل تحديد في نظام الخير. عنده، هو أن يكون الإنسان بشرًا سويًا، متعاونًا مـع الآخر. وهذا الجين ليس ببعيد عن الإنسان بل هو قريب منه، وحاضر بالنسبة لكل من يفتش عنه لكي يتفهمـه ويدركـه، إنه في النهاية يؤلف ذات الإنسان.

والطريق العملي لتحقيق الواجب، فيما يرى ذلك كونفوشيوس، هو معرفة هذه الذات الإنسانية ومراقبتها، والإذعان لصوتها الداخلي بعيدًا عن الهوى والغرض.

ولعلنا نجد هنا تقاربًا بين هذا القول وقول سقراط: " اعرف نفسك بنفسك " الذي اتخذه أساسًا لفلسفته كلها، مما حدا بمؤرخي الفكر إلى اعتبار هذه المقولة أحد أسباب خلود فلسفة ديكارت حيث صرح بعد اثنين وعشرين قرنًا بقوله: " إني لما كشفت الأنا حملت مصباحه الذي على سناه كشفت كل اللأنا ".

إن هذا الجين يتصف بكل الأوصاف الإنسانية الأخلاقية مثل الحكمة، والعدالة، والتقوى، والشجاعة، والشهامة، والنقاء، والرحمة، والعطف، والكرامة، والصدق، والأريحية، وقد أوجب كونفوشيوس على أتباعه، ضرورة التحلي بهذه الفضائل الأخلاقية، والتعبير عنها بالممارسة اليومية من أجل أن يسود المجتمع الانسجام والسلام، ويعمَّ الخير والسعادة الكون بأسره.

كما يجب على الإنسان، إلى جانب تمسكه بهذه الفضائل الرئيسية، أن يكون مقلاً في كلامه، مكثرًا في

أفعاله، إذ تعد الثرثرة وكثرة الكلام من أقبح الرذائل. ويستقبح كونفوشيوس سلوك الأفراد الذين يملئون العالم بكثرة ثرثرتهم وصياحهم وخطبهم الجوفاء، دون أن يقوموا بأي عمل من الأعمال النافعة، وفي ذلك يقول:

" ذو المروءة هو الذي يتثاقل عن القول " [1] من كان مجودًا حديثه متطلقًا وجهه، قلت مروءته " [2]

ويقول أيضًا في هذا المعنى: " قلما يكون الشخص ذو الخطب المؤثرة في المظهر رجلاً فاضلاً "، " إن الكلام المنمق يجعلنا أحيانًا عاجزين عن التفرقة بين ما هو حسن وما هو سيء "، إني أكره جعجعة الخطب، وأخيرًا يقول: " إن الرجل العاقل لا يحكم على الناس بأقوالهم، بل بأعمالهم، ففي العالم المتحضر نجد المجتمع زاخرًا بالأعمال السامية، بينما في العالم المتأخر، أو غير المتحضر نجد المجتمع زاخرًا بالخطب الرنانة " [3]

---

(١) كتاب الحوار ١١٢/١٢

(٢) كتاب الحوار ١٦/١

(١) كتاب الطقوس، الفصل ٣٢، حكم كونفوشيوس

وينكر كونفوشيوس على الإنسان أن يخادع الآخرين في حقيقة أمره، بل يجب عليه كبيرًا كان أم صغيرًا، أن يظهر بالمظهر الذي يتفق مع حقيقته، دون خداع أو تمويه، ويسمي هؤلاء الذين يتظاهرون بما ليس فيهم "لصوص الفضيلة ": أولئك الذين يتعمدون سرقة مزايا غيرهم: " فالرجل الذي يظهر في صورة الوقار والقوة، بينما هو في داخلية نفسه فارغ وضعيف، يبدو وكأنه لص صغير يدلف إلى منزل غيره في الليل ليسرق ما فيه "[1].

كما يكره أن يتصف الإنسان بصفات المحسوبية أو المحاباة أو الوساطة، ويدعو مريديه إلى التخلق بخلق الكرامة، والابتعاد عن تملق الآخرين، والاكتفاء بالجهد الشخصي والكفاءة للوصول إلى ما يبغي ويريد، ولا يحاول بعد ذلك أن يحمل الآخرين أو يعزو إلى القدر تبعة فشله وإخفاقه، وبهذا وحده يتفادى الرجل العاقل الفاضل الانفعالات والقلق، ويكون بإراداته سعيدًا مطمئن البال، مرتاح الفؤاد.

إن الرجل العاقل الحكيم المهذب الخير (الجين) لا يشكو ولا يتذمر وقت الشدائد والمحن، وهو واضح، وصريح

---

(٢) كتاب الطقوس، الفصل ٣٢

جريء في موضوع الحق. وهـذا (الجـين)، فـي نظـر كونفوشيوس، هو نموذج فريد، راقٍ ومتعالٍ، لم يصل إليـه أو يبلغه سوى حكماء الماضي العظام .

الوسط الذهبي

الوسط والانسجام، عند كونفوشـيوس، همـا نقطـة الذروة في الطبيعة الإنسانية، إذ إن هذه الطبيعة تتألف مـن قسمين: النفس أو الذات أو المركز، والأحاسيس أو المشاعر والانفعالات. فعندما لا تتنبه الأحاسيس أو الانفعـالات مثـل الغضب أو الحزن أو الفرح تـدعى الوسـط أو الاعتـدال، وعندما تتنبه هذه الأحاسيس أو الانفعالات دون أن تتجـاوز الحد المعتدل يقال عن الـنفس أو الـذات إنهـا فـي حالـة الانسجام، وبعبارة أخرى، إن الأحاسيس عندما تتجسـد فـي الخارج، وهي تعثر على الإيقاع الصحيح، تسمى انسـجامًا. فإذن الوسط أو الاعتدال هو الأصل، والانسجام هو القـانون العام. فحالة المركزية أو النفس أو الذات هي المنشأ الأعظم، وحالة الانسجام هي " السبيل الحسن البعيد المدى، لكل ما هو موجود في العالم ". وحينمـا يلحـق الوسـط أو الاعتـدال

والانسجام غايتهما، ويتحققان، يسود الاستقرار الكامل في السماء وعلى الأرض، وتتلقى جميع الأشياء حقها كاملاً، وتتقدم نحو الكمال، بما يفيد أن المجال الأخلاقي والمجال الميتافيزيقي لا ينفصلان، بل النظام الخلقي والنظام الكوني يشكلان وحدة أو كيانًا واحدًا.

لقد وقف كونفوشيوس موقفًا وسطًا بين الإفراط والتفريط، ولجأ إلى الحد الأوسط لتحديد الفضائل الخلقية وبعبارة أخرى فإن الفضيلة عنده هي اختيار الوسط بين رذيلتين متضادتين مثال ذلك: عندما يمسك إنسان ما بطرفي قضية، ويتصرف حيال الناس تبعًا للوسط الصحيح. ومعنى هذا أن الإنسان يصبح فاضلاً، إذا ما وقف موقفًا وسطًا بين ذاته المركزية وانفعالاته، ووفق بينهما حسب الظروف، فلا يحاول أن يعلو مستوى القانون الأخلاقي عن طريق التزمت أو التطرف، أو يتدنى في تصرفه الأخلاقي إلى مستوى أقل بكثير من مستوى القانون الخلقي، بل يعمل مثل هذا الرجل على تحديد القانون الأخلاقي بالضبط ويتصرف طبقًا لها، دون إفراط أو تفريط، وبهذا يوصف سلوكه بأنه سلوك أخلاقي صحيح. ومن هنا جاز لنا أن نقارن نظرية

الوسط الذهبي الكونفوشية بمذهب الوسط الذهبي الأرسطية ومؤاده أن كل فضيلة هي وسط بين رذيلتين، فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين التبذير والبخل، والصداقة وسط بين التملق والشراسة، والتواضع وسط بين الخجل وانعدام الحياء.

ومما قاله كونفوشيوس في هذا المعنى:" إنني أعرف الآن لماذا لا يفهم كثير من الناس القانون الأخلاقي. فالأفراد ذوو الطباع السامية يعيشون في مستوى أخلاقي يعلو القانون الأخلاقي أي أعلى من ذاتهم الأخلاقية العادية. والأفراد ذوو الأخلاق المنحطة يعيشون في مستوى يقل عن المستوى العادي للقانون الأخلاقي " (١)

ويقول أيضا: " لعل الاقتصاد الدائم هو المثل الأعلى للفضائل " (٢). لا تفسد الآخرين بفرط حبك، ولا تقضِ عليهم بفرط كراهيتك، وخير الأمور هو الوسط بين الطرفين ".

---

(١) كتاب الطقوس، الفصل الثاني، الانسجام المركزي.

(٢) كونفوشيوس: كتاب الحوار ٦/٦١.

الإنسان النبيل (الأعلى) أو الماجد (تشن – تزو *Chun – Tzu*):

تتجسد الأخلاق الوسطية، عند كونفوشيوس، في الإنسان النبيل، أو الماجد (تشن – تزو)، الذي يضع رفاهية البشر نصب عينيه، ويتميز بالفكر المستنير والنظر الثاقب، وتعلو مصلحة الدولة عنده على أية مصلحة أخرى، حتى لو كانت مصلحته الشخصية. وتتطابق لدى هذا الإنسان نبالة الحسب مع نبالة السلوك الحكيم، وحياته بهذا تعد خير مثال لمذهب الوسط، ويناقضها تناقضًا متميزًا حياة الإنسان اللئيم أو (الإنسان الحقير: هسياو – جن) الذي يتطرف في سلوكه وأفعاله دون وازع من ضمير أو خلق سامٍ. والنبيل يصبح نبيلاً بتربية نفسه إيمانًا منه بأن الرقي الذاتي هو أساس الرقي الاجتماعي كما سيقول بذلك فيما بعد الفليسوف الألماني (جوته). وفي بحث النبيل عن الحقيقة يختار الخير، ويتعلق به جهده، ومن هنا فإنه يرفض أن يكون قديسًا أو ناسكًا معتزلاً للمجتمع، إذا يصده ضميره عن إتيان هذا الفعل الشاذ.

إن هذا الإنسان المهذب الخيِّر (الجين) يحرص دائمًا على قواعد اللياقة (لي)، ويبحث دائمًا عن الطريق (تاو)، ويعمل وفقًا لعلاماته.

ولما كان الناس، عنده اجتماعيين بفطرتهم، صالحين بطبيعتهم، فقد وطَّد الإنسان النبيل أو الأعظم نفسه على أن يكون عضوًا نافعًا في نطاقه، وأخذ على عاتقه عبء هداية المجتمع إلى الطريق الصواب المستقيم.

والرجل النبيل، في نظر كونفوشيوس، ذكي، شجاع، محبٌّ للخير، طالب علم ومعرفة، واسع الفكر، هادئ صافٍ، محب للناس جميعا ومعاون لهم على فعل الخير، موضوعي في حكمه على أفعال الآخرين بلا تحيز أو ظلم، دائم المحاسبة لنفسه على كل ما يأتيه من أفعال كبيرة كانت أم صغيرة، ثابت على الحق، عادل وغير حقود، فعَّال لا قوَّال (وهو متفوق في أفعاله) ومعتدل في هذه الأقوال والأفعال، يحترم مشيئة السماء دون ضجر أو تبرم، حكيم، خلو من القلق والحيرة والتشوش، وهو مجامل لطيف بشوش لجميع الناس، حازم وقوي العزيمة.

ونفصل حديثنا عن سمات الرجل النبيل أو الماجد ومنهجه في التفكير والسلوك كما وردت في كتاب المنتخبات أو الحوار، وكتاب الطقوس، مع مقارنتنا لصفات النبيل بصفات اللئيم أو الإنسان الأدنى (المنحط) وطريقته في التفكير وحركاته، لتكتمل لنا بذلك أفضل صورة للرجل النبيل، الذي تجتمع فيه الحكمة والقداسة: النبيل هادئ صافٍ، قلبه خلو من الخوف والقلق، أما اللئيم فهو دائمًا قلق و في همٍّ وكرب.

النبيل يدرك ما هو حق وصواب، ولا يفهم اللئيم إلا ما هو مربح ونافع.

النبيل يحترم آراء الآخرين ويقدرها، ولا يعتنق منها إلا ما يتفق مع مذهبه، بينما اللئيم يظاهر كل الناس، ويتآخى معهم دون أن يتفق مع أي إنسان.

الأول يراعي الفضيلة ويعشق الروحانيات، والثاني يراعي الحيازة والاقتناء ويعبد الماديات على وجه الإجمال.

النبيل يفكر في الصداقة النزيهة ويسعى إليها، واللئيم يهدف من وراء اتصالاته بالآخرين إلى الحصول على المنفعة والربح.

لا يبحث النبيل إلا عما هو موجود في نفسه، أمَّا الرجل اللئيم فيبحث عما في الآخرين مستجديًا إياهم.

الأول يحترم ذاته وهو ممتلئ كرامة دون خيلاء، بينما الثاني متكبر مغرور، وهو وضيع محتقر وتعوزه الكرامة.

النبيل واسع الأفق، رحب التفكير ولا يعرف التعصب "فليس بوجه الإطلاق مع، ولا بوجه الإطلاق ضد أي شيء من الأشياء في العالم "، فهو ليس بالمتشبع بل يكتفي بالموافقة على الخير، بينما اللئيم عكس ذلك تمامًا، فهو متعصب مغرور ضيق الأفق، يتحزب في سبيل منفعته، ويسعى إلى التفرد بالكلمة الأخيرة.

يجتهد النبيل في معاونة الآخرين على إتيان الأعمال الخيِّرة، بينما يسعى اللئيم إلى مساعدة الآخرين على ارتكاب الشر.

لا يحقد النبيل على أحد، ولا يغضبه أن يسمو غيره من الناس، " فإذا رأى أفاضل الناس وأكملهم خلقًا فكر في أن يكون مثلهم، وإذا رأى سفلة الناس ابتعد عنهم وقفل إلى نفسه يتعمق حقيقة أمره ". وهذا عكس ما يفعله اللئيم.

الأول يطلب العلا، والثاني ينجذب إلى الأسفل.

النبيل حازم صريح في إعلان خصومته للآخرين، بينما الخصومة تخنق اللئيم ولا يقدر عليها خاصة إذا كانت في الحق.

والرجل النبيل متواضع دائمًا، ويفرض على نفسه أن يكون عادلاً، وهو لا يحقد على أحد، ويرضى بما قُدِّر له دون تذمر من السماء ولا من الناس. إنه يثريث في أقواله ويسرع في أعماله التي يهمه أن تكون متطابقة مع أقواله. ويخشى كل الخشية ألا تحقق فعاله وعدًا قطعه بلسانه. وهو يتجنب الدخول في أي مناقشة أو جدال، وحتى في المناقشة يعرف كيف يبقى نبيلاً.. لا يحزن و لا يخاف.

النبيل يداوم على محاسبة نفسه على كل كبيرة وصغيرة، وإخضاع أعماله وأفكاره للنقد والاختيار لمعرفة مدى صدقها. أمَّا اللئيم فلا يحاسب نفسه، ولا يلزمها بأي إلزام، ولكن يتظاهر بالفضيلة أمام الناس، الذين سرعان ما يكشفون عن هذا التظاهر الخادع، إذ إن الخديعة لا تدوم. وفي ذلك يقول كتاب الأغاني:

مهما بلغ غوص السمكة في داخل الماء

فإنها لا شك تكشف بوضوح.

وطابع الإنسان النبيل هو شعور المحبة والأخوة نحو الآخرين، والعطف عليهم، ويرى أن انعدام المحبة من شأنه أن يباعد بين الإنسان وبين الاستمتاع بالحياة الرغدة الهنية، ويزيد من شعوره بقسوة الحياة وظلمها. ويشيع في أقوال النبيل مبدأ " الولاء وتبادل المعاملة " الذي يجب على الإنسان أن يتخذه قاعدة يسير عليها طوال حياته. ويقضي هذا المبدأ بأن " لا تعامل الناس بما لا ترضى أن تعامل به " [1]. وهذا هو منطوق القاعدة الذهبية التي بشّر بها السيد المسيح (عليه السلام) بعد كونفوشيوس بنحو خمسة قرون، وهي: "ألا تعامل الناس إلا بما تحب أن يعاملوك به، وأن تحب جارك كما تحب نفسك".

ولكن العدالة أو تبادل المعاملة لا تعني عند كونفوشيوس مقابلة الشر بالخير، أو مجازاة الإساءة بالإحسان، بل تقتضي مجازاة الإساءة بالعدل والإحسان بالإحسان.

---

(١) كونفوشيوس: كتاب الحوار ١٥/١٥٤و ١٢/١١٢

وتشتمل العدالة التي يرعاها الرجل النبيل على أربعة مبادئ هي: الطبيعة السمحة (النية الطيبة)، والفعل الحسن، والعلم الغزير، والعزيمة القوية. وإذا كان الرجل النبيل " عادلاً لا ينحاز، فإن اللئيم الناقص منحاز لا يعدل "[1]

ويرى كونفوشيوس أن المحبة والكراهية يجب أن تقدر تقديرًا عادلاً يلتزم به الإنسان في سلوكه نحو الآخرين مع مراعاة الكرامة الشخصية وحقوق الأعداء، وفي ذلك يقول: " إنما ذو المروءة من يقدر على حب الناس بالحق، وعلى كراهة الناس بالحق "[2]. ويقول أيضا: " أحبوا أصدقاءكم ولكن أدبوا أعداءكم. ولا تكرهوا أولئك الأعداء، فالكراهية لا تولِّد إلا كراهية. ومن الناحية الأخرى لا تردوا الكراهية بالمحبة، لأن محبتكم هذه سوف تفسر خطأً وتعتبر ضعفًا من جانبكم، بل وتشجع أعداءكم على زيادة درجة كراهيتهم لكم. وإنه لمن الوحشية أن تثأروا إذا ما أصابكم أذى، ولكن من الحماقة، أيضًا، أن تغفلوا الأذى وتصفحوا. فلتقدروا المسألة تقديرًا عادلاً ثم يكون سلوككم طبقًا لهذا

---

(٢) كتاب الحوار ٢/٢٤

(١) كتاب الحوار: ٤/٣٧

التقدير، علـــى أن تراعـــوا كـــرامتكم الشخصـــية وحقـــوق أعدائكم"[1].

لقد تميَّزت الأخلاق عنده بالواقعية، ومن هنا فإنه لا يوافق على هذا النوع من المحبة السامية، وعلى مبدأ تحويل الخد الآخر، بل رأى أن العدالة، وتبادل المثل بالمثل، ما هما في الحقيقة إلا شيء واحد، وأن علينا أن ننظر إلى الآخرين، ليس كما نريدهم أن يكونوا، وإنما كما هم كـــائنون فعـــلاً، " ومن المسلم به أن المحبة يمكن أن تتغلب على الكراهيـــة، كما يمكن أن تتغلب المياه على النار. ولكن يجب ألا يفوتنـــا أن النار القوية المتأججة يمكن أن تجفف بركة من المـــاء "، إن مخزون المحبة المتناهي في الصغر والذي يحتل مكانـــه داخل القلب البشري ليس من القوة بالدرجة التي تمكنه من أن يفيض على القوة المعتدية، ويطفئ لهيب كراهيتها.

والرجل النبيل هو الـــذي تتســـاوى فيـــه الصـــفات الطبيعية الأصيلة (صفات الجسم)، والصـــفات المكتســـبة (الثقافة والتهذيب) وتمتزج بعضها بالبعض الآخر، وذلـــك

---

(٢) نقلاً عن د. هنري توماس: أعلام الفلاسفة ص ٦٠ – ٦١وانظـــر: كونفوشيوس: كتاب الحوار ١٤/١٤٤

أن الصفات الطبيعية إذا غلبت فيه على الصفات المكتسبة، كان جلفًا أو فلاحًا من فلاحي الأرياف غير المتحضرين، أمَّا إذا غلبت فيه الصفات المكتسبة على الصفات الطبيعية الأصيلة، تحوَّل إلى مجرد إنسان يتحكم فيه الروتين أو إنسان يمثل أخلاق الكتبة. أمَّا إذا اقترنت فيه الصفات الطبيعية الأصيلة بالصفات المكتسبة، وامتزجت هذه بتلك، كان لنا منه الرجل كامل الخلق (١)

ويحسن الرجل النبيل التصرف في كل موقف يجد نفسه في غماره، إنه لا يخشى الضياع في أي وضع، لا في الثروة، ولا في الشرف، ولا في الفقر، ولا في الضعة (الحطة)، ولا بين المتوحشين، ولا في الألم، ولا في الصعاب، " فإذا كان ثريًا يتصرف تصرف الأثرياء، وإن كان فقيرًا متضعًا، يسلك سلوك الفقراء المتضعين. وإن وجد بين المتوحشين المتبربرين، يفعل فعلهم. فإن أحدقت به المتاعب، جهد في تلافيها. وبالأحرى، يقف صامدًا في جميع

---

(١) راجع: كتاب الحوار ٥٨/٦ – ٥٩

الظروف والملابسات. لكنه لا يستغل مركـزه، ولا يسـعى للإفادة من الآخرين. [1]

والإخلاص هو قوام أخلاق الرجل النبيل، وكمـال وجوده الذاتي، وينعدم الوجود بانعدام الإخلاص الـذي يعـد بداية الأشياء ونهايتها. ومن هنـا اعتبـر الرجـل النبيـل الإخلاص أعظم جميع المعارف المكتسبة قيمة، وكل الأشياء الناتجة عن الإخلاص مبرأة من الخطأ. ويرى كونفوشـيوس أن السبيل إلى اكتساب فضائل الرجل النبيـل هـو التعلـيم، وطريقه طريق شاق؛إذ يتطلب أن يتعلم المرء كل يـوم مـا ينقصه، فعن طريقه يتعلم القانون الأخلاقي والشعائر والآداب والموسيقى والكتابة والحساب، وهو بهذا يـرفض المعرفـة العفوية.

إن التعليم بهذا ضروري لاكتساب الفضائل وتشكيل السلوك الإنساني القابل للتعديل باستمرار، وهو بهـذا لـيس بالشيء الثابت. وقد كان لآرائه في التعليم والتربية دور كبير في شيوع عقيدة التفاؤل القائلة بقابلية الطبيعة البشرية لبلـوغ الكمال عن طريق مداومـة الـتعلم واكتسـاب الفضـائل:

---

(١) كونفوشيوس: مذهب الوسط

" فكما أن قطعة من الخشب لا يستطاع تشكيلها لكي تصير قطعة فنية بدون أن تقطع أو تنشر، كذلك الإنسان لا يستطيع الوصول إلى القانون الأخلاقي بدون التعليم، ولذلك كان الملوك القدامى يتجهون نحو التعليم باعتباره أول العوامل الرئيسية في مجهوداتهم لإقامة نظام في دولتهم " (١)

ويقول كونفوشيوس في ذلك:

" اطلب العلم بالتوسع، ولتكن همتك صادقة، واستفسر عما يعنيك، وفكر فيما يقربك "، " من يعلم كل يوم ما لم يعلمه من قبل، ولا ينسى كل شهر ما قد علمه، فهو جدير بأن يعتبر مولعًا بالعلم " (٢)

ويهتم كونفوشيوس بأن يكون الطريق الموصل إلى العلم والمعرفة هو طريق التجربة الحسية المتمثلة عنده في الإكثار من المشاهدات والمسموعات ومصدرًا هامًا لهذه المعرفة اليقينية. وفي ذلك يقول: " أكثر من المسموعات، ودع منها ما فيه الشك، واحترس إذا تحدثت عن البواقي تقل

---

(١) كتاب الطقوس الفصل ١٨

(١) كتاب الحوار ١٨٦/١٩

لومة الناس عليك. وأكثر من المشاهدات، ودع منها ما فيه الخطر واحترس إذا عملت بالبواقي تقل ندامتك " [1]

ولا شك في أن تعاليم كونفوشيوس قد تركت أثرها الكبير في نفوس الشعب الصيني من حيث إجلاله للعلماء والمفكرين وتوقيرهم واتخاذهم أبطالاً مفضلين بما لا نجد له مثيلاً في أي مجتمع آخر.

ويجمل صفات الرجل النبيل أو الماجد في تسعة صفات: فأمَّا من حيث عيناه فهو يحرص على أن يرى بوضوح، وأمَّا من حيث أذناه فهو يكون بشوشًا ظريفًا، وأمَّا من حيث سلوكه فهو يحرص على أن يكون وقورًا، وفي حديثه يحرص على أن يكون مخلصًا، وفي تصريف شئون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته وأن يبعث الاحترام فيمن معه، وفي الأمور التي يشك فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس، وإذا غضب فكر فيما قد يجره عليه غضبه من الصعاب، وإذا لاحت له المكاسب فكر في العدالة والاستقامة " [2].

---

(٢) كتاب الحوار ٢/٢٥

(١) راجع: كتاب الحوار ١٦/١٦٣ – ١٦٤

والمدقق في صفات الرجل النبيل عند كونفوشيوس، يجد أنها تتشابه إلى حد كبير مع صفات الرجل الكامل عند أرسطو، الذي يتمتع بمكانة فريدة قلَّ أن يبلغها إلا الملوك وأبناء النبلاء. إذ يتصف الرجل الكامل أو المثالي عند أرسطو بالكبرياء والاعتزاز بالنفس، ويهتم بمساعدة الآخرين على الأعمال النافعة، ولا يلتمس عندهم عونًا، بل يحرص على تقديم المنافع للآخرين، ويخجل أن يتلقاها منهم،وهو صادق في غير التواء، صريح في إظهار مشاعره الحقيقية نحو الآخرين من حب. أو كراهية، يتكبر على أهل الكبر وأصحاب المكانة المرموقة، ولا يحقر من هم أقل منه من أهل الطبقة المتوسطة بل هو دائم التواضع لهم.

كما يمكننا أيضًا، أن نقارن كونفوشيوس بالفليسوف الألماني (كانط: Kant: ١٧٢٤ – ١٨٠٤ م)، إذ إن الرجل النبيل عند كونفوشيوس يجب عليه أن يسير وفق قاعدة، وهذه القاعدة يجب ألا تكون خاصة، بل يشترط أن تكون عامة " فهو يتحرك بحيث تكون حركاته في جميع الأجيال طريقًا عامًا، ويكون سلوكه بحيث تتخذه جميع الأجيال قانونا عامًا،

ويتكلم بحيث تكون ألفاظه في جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ " [1].

ونحن نلمح هنا قانون الأخلاق الكانتي المطلق قبل وجوده بأكثر من أربعة وعشرين قرنًا وهو القائل: " افعل طبقًا لقاعدة تستطيع في نفس الوقت أن تريد جعلها قانونًا عامًا. وهذا القانون عند كانط، كما هو الحال عند كونفوشيوس، يستجيب له كل مخلوق عاقل مستهدفًا طاعته في ذاته باعتباره قانونًا لا لأي سبب آخر. [2]

وإذا كنا قد لحظنا وجود تقارب بين كونفوشيوس من ناحية، وأرسطو وكانط من ناحية أخرى، فإننا في المقابل، سنلحظ اختلافًا واضحًا بين الرجل النبيل عند كونفوشيوس، والرجل الأعلى (السوبر مان) عند الفيلسوف الألماني (نيتشه: ١٨٤٤ – ١٩٠٠ م)، إذ تحدث كونفوشيوس عن الرجل النبيل قبل أن يجيء نيتشه بنظرية الإنسان الأعلى بما

---

(١) مذهب الوسط

(٢) انظر: كانط: أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة، د. محمد فتحي الشنيطي، مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٥ ص ٦٣.

يقرب من خمسة وعشرين قرناً. ولكن الاختلاف واضح، والتباين ظاهر بين الاثنين. فرجل كونفوشيوس النبيل كان يرى أن في استطاعة الآخرين كافة أن يصبحوا نظراء (عن طريق التعليم والتربية) أما إنسان نيتشه الأعلى (السوبر مان) فكان يتعالى على الآخرين كافة ويحتقرهم، ويعاملهم على أنهم مرءوسين وفي خدمته. وإذا كان الرجل النبيل، عند كونفوشيوس، يتميز بالهدوء والصفاء والرقة والرحمة والشفقة والمجاملة والبشاشة والتواضع وحب الآخرين ومعاونتهم على إتيان الأعمال النافعة، وبذل العون لهم للعزوف عن ارتكاب الشر، فإن من صفات الرجل الأعلى عند نيتشه، القسوة وكراهية الشفقة والاشمئزاز من منظرها كأنها جيفة، معتبرًا إياها " فضيلة المومس "، إذ القسوة عنده هي مبدأ الحياة الأول، وهي تربي الإنسان على الإقدام على أشد المخاطر. كما يمتاز إنسان نيتشه الأعلى بالحيوية والنضال الدائم من أجل السيطرة والغزو والظفر، الذي لا يمكن أن يتحقق بدون حرب عدوانية، فهذا السوبر مان، بطبعه، يبغض السلام، ويقدس الحرب.

وأخيرًا فإن هذا الرجل الأعلى عند نيتشه، يحارب القيم الأخلاقية والاجتماعية المتمثلة في المساواة والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، ويرى أن القوة هي أساس نشأة المجتمعات البشرية، وأن الغزاة والسادة الأقوياء هم الذين أنشئوا الدول [1]. عن نيتشه يفضل، بصفة عامة، الشر على الخير، خلافًا لكونفوشيوس، الذي يؤثر دائمًا، الخير على الشر، ويدعو إلى كفالة الخير والسعادة لجميع أفراد الجنس البشري.

لقد حاول كونفوشيوس أن يجعل من شعبه غالبية من النبلاء الأماجد الكرام المجاملين، لا أقلية مغترة من المتعالين المتعصبين، وهذا ما سيرفضه (نيتشه) على طول الخط إيمانًا منه بأن الإنسان الأعلى ما هو إلا نتاج التطور البيولوجي، وأن غالبية الشعب يجب أن تتحول إلى وسائل (خدام) وأدوات للعظماء، فعذاب الكثرة عنده هو ضرورة لانتصار الصفوة الممتازة. وقد سبق أن علمنا أن كونفوشيوس لا يشترط في النبيل أن يكون منحدرًا من أسرة

---

(١) راجع: نيتشه: هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فليكس فارس، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، ص ٢٧٦، ٣٢٢، ٣٢٣

نبيلة ورث عنها النبل، بل أن النبيل هو من اجتهد في تكميل ذاته علميًا وأخلاقيًا، وراعى قواعد اللياقة (لـــي)، وعمـــل طبقًا لعلامات الطريق (تاو)، حتى ولو كان من الطبقـــات الدنيا.

الطاعة النبوية

طاعة الأبناء للآباء إحدى أهم تعاليم كونفوشيوس. ويعني الولاء البنوي (هســـياو Hsiao باللغـــة الصـــينية) " الولاء للآباء الموتى والأسلاف وتقديم الطعـــام والقـــرابين إليهم، أما بالنسبة لكونفوشيوس، فقد أصبح الـــولاء البنـــوي يعني خدمة الوالدين، والبر بهما أثناء حياتهمـــا. إن أســـاس الفضيلة في نظره، هو الطاعة أو التقوى البنوية، لأن الفـــرد لن يمكنه احترام قانون المجتمع، وأداء واجباته حيال الحاكم والمجتمع، إلا بعد إدراكه كيفية احترام والديـــه وخـــدمتهما طائعًا مبجلاً. فالأسرة هي الوحدة الطبيعية، والمكـــان الأول للتجربة الأخلاقية؛ إذ فيها تصبح الفضيلة ثابتـــة، ويصـــبح الواجب حقيقة، ومن هنا نبه كونفوشيوس مريديـــه وأتباعـــه لمزاولة طاعة الوالدين داخل الأسرة، بمـــا يؤكـــد أهميتهـــا

بوصفها الخلية الأولى، والصورة الصغيرة للمجتمع. فلنعمل، إذن، فيما يرى ذلك كونفوشيوس، على تنظيم شئون الأسرة باتباع قواعد الفضيلة، وعلى رأسها فضيلة الطاعة البنوية، والإخلاص والقدوة الصالحة، ينصلح حال المجتمع بأسره ويتهيأ للبلاد نظام اجتماعي، سليم، يتيسر معه قيام حكم صالح، ويسود العالم بأجمعه الانسجام والوئام، ويسعد جميع من فيه وفي ذلك يقول كونفوشيوس:

" عامل أفراد أسرتك معاملة فاضلة، تستطيع بعد ذلك أن تعلم وتقود أمة بأكلمها " (١)

" من بر والديه، أحب إخوته، وتمكن من السياسة "(٢)

وتتمثل الطاعة البنوية في حب الوالدين وخدمتهما والعناية بهما في حياتهما، وتهيئة قبر مناسب لهما، ودفنهما دفنًا لائقًا بهما عند موتهما، ثم تقديم القرابين لهما. ولا يعني البر بالوالدين مجرد تقديم الطعام لهما، فإن الحيوانات تجدل لها طعامًا، فعلى الأبناء فريضة إجلال الوالدين وتوقيرهما.

---

(١) كتاب الطقوس الفصل ٩ انظر: Yutang (Lin): The Wisdom of Confucius, N. Y. ١٩٣٨

(٢) كونفوشيوس: كتاب الحوار ٢٦/٢

وعلى الابن تأنيب والده بلطف، إن أصر على التمسك برأيه الخاطئ، ولكن في حزم. فالاعتراض على الوالدين مسموح، إذا ما بدا أنهما مخطئان، ولكن دون تجاوز الاحترام العميق لهما. وعلى الابن أن يبقى خاضعًا لمشيئة والديه في جميع الأحوال. ومما قاله كونفوشيوس في هذا المعنى:

وجب على الولد المبرة بوالديه إذا كان داخل المنزل، واحترام للمتقدمين في السن إذا كان خارجه، وأن يكون منتبهًا صادقًا مشفقًا على عامة الناس " [1].

" إذا كان الوالدان في قيد الحياة خدمها بالأدب، وإذا توفيا دفنهما بالأدب، وقدم القرابين إليهما بالأدب " [2]

" من خدم والديه، فلينصح لهما بالبشاشة والرفق، فإن رأى منهما عزيمة على الإعراض عن نصحه، فليزدد احترامًا لهما و هو غير متنازل عن تقديم النصح لهما، وغير متذمر منهما، ولو نالته المتاعب في سبيل نصحه لهما "[3].

---

(١) كتاب الحوار ١٧/١

(٢) المصدر السابق ٢٢/٢

(٣) كتاب الحوار ٤١/٤

" من كان والده على قيد الحياة فلا يسافر إلى الآفاق القاصية، فإن سافر مضطرًا، فليكن لسفره جهة معينة " [1]

ويهدف الزواج، عند الكونفوشية، إلى إيجاد ذات جديدة تعمل على تخليد الذات القديمة إلى مدى " عشرة آلاف جيل "، وتتصف الذرية بالتقوى والورع إن استطاعت تحقيق هذا الهدف. ويمكن تخليد ذكرى الأسلاف عن طريق تقدير الابن لبدنه الذي ورثه عن والديه، ورعايته له وحمايته من أي أذى. كما يتطلب هذا التخليد أن يعمل الابن جاهدًا على إنجاب أحفاد يحفظون شجرة العائلة، إلى جانب الاستجابة لرغبات الآباء أثناء حياتهم، وعلى الابن أن يمتنع عن ارتكاب الأفعال المشينة؛ حرصًا منه على عدم تلويث سمعة عائلته [2]

الصداقة

يتحدث كونفوشيوس عن الصداقة باعتبارها نوعًا من أرقى أنواع العلاقات الشخصية التي تنقل الفرد إلى عالم

---

(١) المصدر السابق.

(٢) راجع: فؤاد محمد شبل: حكمة الصين، ١٤٧/١.

إنساني صرف يشعر فيه بأنه لا يكون إنسانا إلا بـــالآخرين ومع الآخرين. إنها أشبه ما تكون بضرب من الإشعاع الذي يغمر بنوره شتى الذوات الإنسانية. ويكره في الصداقة الزيف والخداع والنفاق والإفراط في المجاملة، والتظاهر بـــالمودة بهدف ستر المرء كراهيته للآخرين.

وأساس الصداقة الوفاء الذي يوجـــب علـــى المـــرء استخدام كل إمكانياته للحفاظ على بقاء الصديق على الصراط السوي. وتجيز الصداقة تبادل الانتقاد الصادق بين الأصدقاء الأوفياء. وعلى الإنسان أن يحرص على مصادقة الأخيـــار، والابتعاد عن الأشرار، وأن يكون نصحه لصديقه بـــإخلاص ورقة: " انصح صديقك بالإخلاص وأرشده بالبراعـــة، فـــإن وجدته لا يقبل منك نصيحة فاسكت عن نصحه ولا تعـــرِّض نفسك للإهانة "[1].

ويقسم الصداقة النافعة إلى ثلاثـــة أنـــواع: صـــداقة الصريح، وصداقة الوفي، وصداقة المثقف واسع الاطـــلاع، وعكس هذا تكون الصداقة الضارة.

---

(١) كتاب الحوار ١٢/١٢٠

ويـــرى كونفوشـــيوس أن الأخـــلاق، لا القـــوانين الإجبارية أو العقاب، هي الأساس السليم لعلاقات الإنســـانية بين أفرد المجتمع ، فعلى الآبـــاء والدولـــة واجـــب غـــرس الأخلاق الفاضلة؛ لأن الأخـــلاق إذا فســـدت فســـد الأفـــراد والمجتمع في وقت واحد. ويجمل فضـــائل الأخـــلاق التـــي نستطيع اتخاذها أساسًا لهذه العلاقات في عشر قواعد، تشـــبه إلى حد كبير بوصايا سيدنا موسى العشر وهي:

" أن يعطف الولد على أولاده، ويحترم الابن أبـــاه، ويعامل الأخ الأكبر أخاه الأصغر بلين ورفق، وأن يخضـــع الأخ الأصغر لأخيه الأكبر ويحترمه، وأن يتحلـــى الـــزوج بحسن الخلق ويعامل زوجته بـــاحترام ورقـــة، وأن تطيـــع الزوجة زوجها، وأن يحسن الكبار معاملـــة الصـــغار، وأن يطيع الصغار أوامر الكبار، وأن يحسن الحاكم معاملة رعاياه الصغار ويعطف عليهم، وأن يخلـــص الـــوزراء فـــي أداء مهمتهم ".

الموسيقى

ترتبط الموسيقى، عند كونفوشيوس، بالأخلاق ارتباطًا وثيقًا، ومن هنا تظهر أهميتها للإلمام بالأخلاق السامية، واعتبارها من ناحية أخرى، خير وسيلة لعلاج فساد الأخلاق والعادات. وفي ذلك يقول:

" إذا أتقن الإنسان الموسيقى، وقوم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها، تطهر قلبه وصار قلبًا طبيعيًا سليمًا رقيقًا، عامرًا بالإخلاص والوفاء، يغمره السرور والبهجة. وخير السوائل لإصلاح الأخلاق والعادات، أن توجِّه العناية إلى الموسيقى التي تعزف في البلاد " (١). ومعنى هذا أن إدراك أسرار الأخلاق يتوقف على فهم الإنسان للموسيقى حق الفهم، " فالخير شديد الصلة بالموسيقى، والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام ".

ولما كان الجمال مرتبطًا، عنده بالخير، فإن الموسيقى بمساعدتها الأفراد على حب الجمال وتذوقه، فإنها

---

(١) كتاب الطقوس.

تساعدهم، في نفس الوقت، على حب الخير و إتيانه، وعلى التفرقة بين الخير والشر.

وبما أن الموسيقى الرفيعة، هي دائمًا موسيقى سهلة، فكذلك الأخلاق السامية الرفيعة هي بسيطة على الدوام. "والموسيقى الأرفع تبدد الثورة، والأخلاق الأسمى تبدد الخصام " (١)

وبالنظر إلى أهمية الموسيقى ودروها الهام في المجتمع، فقد أوجب كونفوشيوس تعليم الموسيقى للناس أجمعين، سواءً في ذلك أصحاب المواهب العليا أو أصحاب المواهب المتوسطة.

ومما يكشف عن أصالة فكر كونفوشيوس هو توظيفه الموسيقى خاصة، والفنون بصفة عامة، مثل الشعر والغناء لخدمة المجتمع وعلاج أمراضه. فالموسيقى عنده ليست مجرد " ترف عقلي " أو مجرد لذة فردية أو استمتاع ذاتي، بل تستهدف القضاء على الأمراض الاجتماعية بإشاعة الوئام محل الخصام، والمحبة والرحمة والعدل محل الكراهية

---

(١) انظر: كارل ياسبيرز :فلاسفة إنسانيون، ترجمة د. عادل العوا، منشورات عويدات بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٧٥ ص١٣٢.

والقسوة والظلم، وبهذا سبق أرسطو فيما قام به من بعد ذلك في العصر القديم، وابن سينا في العصر الوسيط، من حيث استخدام الموسيقى في التطهير النفسي، وعلاج الأمراض الشاذة.

وتصدر الموسيقى والألحان، عنده، عن النفس أو القلب، عندما تتأثر بحوادث العالم الخارجي، اجتماعية كانت أو طبيعية، و لما كان القلب عنده مشتملاً على أوتار مختلفة، يرتبط كل منها بانفعال نفسي معين، فعندما تمس الحوادث الجارية وترًا من هذه الأوتار، فإن الإنسان يعبر عنها بشكل معين ومنظم تنظيمًا خاصًا: فالنغم اللطيف الرقيق هو نتيجة تأثير الأحداث على وتر الحب. والنغم القوي المرتفع الخشن ينشأ نتيجة تأثر وتر الغضب بهذه الأحداث. والنغم الهادئ البسيط النقي هو نتيجة مس الأحداث لوتر التقوى والتعبد. أما النغم الحزين الكئيب، فينشأ نتيجة لتأثر وتر الحزن، وينشأ النغم المرح البهيج نتيجة لتأثر وتر الفرح، والنغم الهادئ نتيجة لتأثر وتر الارتياح بهذه الأحداث. ويرى كونوشيوس أن هذه الأنغام الستة ، لا تحدث بشكل تلقائي أو عشوائي، وإنما تنشأ نتيجة تأثر الإنسان

بالظروف التي تحيط به في العالم الخارجي، ومن هنا فإن الموسيقى تعتبر خير معبر عن أحوال النفس الإنسانية وما يحيط بها من أحداث [1]

ولكننا، من ناحية أخرى، نستطيع أن نستخدم الموسيقى في التأثير على الأفراد، وعلاج أمراضهم النفسية والاجتماعية، وإشاعة المحبة والتضامن والوئام بينهم، وهذا هو ما كان يفعل ملوك الصين القديمة مع رعاياهم، فيما يقول كونفوشيوس، إذ كانوا يستعينون بالفنون عامة، والموسيقى بوجه خاص، في سبيل إيجاد الوفاق والانسجام بين قلوبهم، والابتعاد بهم عن الماديات. فالموسيقى، إذن، هي السبيل الوحيد لإرجاع الأفراد إلى طبيعتهم الخيرة، بعيدًا عن الماديات والحقد والشرور، بتوجيههم إلى القيم الأخلاقية السامية والمثل العليا الرفيعة.

والحكيم أو الرجل النبيل، هو الذي يمتاز عن غيره في حسن اختيار الموسيقى المناسبة التي ترجع الأفراد إلى طبيعتهم الإنسانية الأولى الخيِّرة التي تتميز بالوئام والوفاق.

---

(١) راجع: كتاب الطقوس، الفصل ١٩

وقد نجح كونفوشيوس في الربط، أيضًا، بين الموسيقى التي تسود العالم المرئي، والأرواح والآلهة التي تسود العالم اللامرئي، إذ إن الموسيقى تصدر عن النفس الإنسانية التي مصدرها السماء أو الآلهة.

وتظهر هنا أهمية الموسيقى وآداب اللياقة، ودورهما الفعال في التربية والانسجام الكوني. فإذا كان دور الموسيقى، يتمثل، كما أشرنا، في إشاعة المحبة والألفة بين الأفراد من جهة والآلهة من جهة أخرى، فإن الطقوس (آداب اللياقة: لي) تلعب هي الأخرى دورًا كبيرًا في تنشئة الأفراد على احترام حقوق الآخرين، والنظام والتضحية في سبيل الواجب، كما تعودهم طاعة الأوامر الإلهية، وتبين لهم منزلة الآلهة، وباتحاد الموسيقى، التي هي من عالم علوي، والطقوس التي هي من عالم أرضي، تتحد الأرض و السماء، ويسودهما الانسجام والألفة والمحبة، أي بين العالمين اللامرئي والمرئي. فالموسيقى والطقوس هما أساس تنظيم شئون الكون والعلاقات الإنسانية بين الأفراد من جهة، والآلهة من جهة أخرى.

ويشترط كونفوشيوس دوام علاقة المحبة بين أفـراد أسرة الجنس البشري، حتى يكون للموسيقى نفع وفائدة. إنـه لا قيمة للطقوس أو الشعائر والموسيقى، عند إنسان، يخلـو قلبه من أحاسيس الشفقة والمحبة والألفة والرحمة.

ولما كانت الموسيقى تعتبر مـرآة صـادقة صـافية تنعكس عليها نفسيات الشعوب وعاداتها وتقاليـدها ونظمهـا الاجتماعية والسياسية، فإنها تستطيع أن تكشف عـن مـدى ما وصلت إليه الشعوب من تحضـر ورقـي أو انحطـاط وانحلال وتفكك، فموسيقى مضطربة غاضبة شعب فوضوي منحط، وموسيقى هادئة مرحـة شـعب مسـتقر مطمـئن، وموسيقى حزينة شعب مفكك منحل.

الدين والميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة)

شهد العصر الذي ظهر فيه كونفوشيوس انحلالاً خلقيًا وانحطاطًا دينيًا، حيث شاع الإيمان بالخرافات وممارسة الشعوذة،واتسم برهبة الناس من خوارق الطبيعة، وانتشر الإيمان بالكهانة والسحر والطيرة، وزاد اعتقاد الناس بقدرة أرواح الموتى على التحكم في مصائر الأحياء، كما كان الفزع ينتابهم عند رؤية الكسوف والخسوف. وقد شهد هذا العصر، أيضا، ظهور العديد من الأفكار والاتجاهات المتناقضة؛ إذ نادى بعض المفكرين مثل (لاو – تسو وشوانجتسي Chuangtse) بضرورة العودة إلى حياة الطبيعة، ونادى البعض الآخر بإعادة تقسيم الثروات، ونادى فريق بالشيوعية، ودعا فريق آخر على رأسه (موتسي Motse) إلى حياة البساطة والتقشف، وشاع الشك الموغل والتلاعب بالألفاظ عند الآخرين. وقد حاول مفكرو هذا العصر علاج هذا الانحلال والفساد، ولكن بدون جدوى.

ففي محيط كهذا، تميز بشيوع بلبلة الفكر وانحلال الأخلاق وانحطاط الدين، آثر كونفوشيوس صرف العقول

عن المسائل الفائقة للطبيعة، والغيبيات، وأعطى الأولوية لمشكلات المجتمع البشري والحكومة الإنسانية والرفاهية والسعادة، كما ارتد إلى الماضي عاملاً على بعث تراثه القديم، وإعادة تنظيم أفكاره القديمة، والسير على هدي قواعده ومبادئه. ولم يكن كونفوشيوس في كل آرائه، دينية كانت أم سياسية أخلاقية، مبتكرًا أصيلاً، بل كان مجرد ناقل عن السابقين. وفي ذلك يقول: " إني راوية غير منشيء، ومصدق السلف محبه. ولذا أشبه نفسي مجترئًا بصالحنا القديم"(١)

لقد أرجع كونفوشيوس الانحطاط الديني والانحلال الخلقي والفقر المادي لعصره إلى إهمال الملوك والأمراء والمسئولين للتربية والتعليم، وتنكبهم السبل والطقوس الدينية القويمة وإهمالهم لها، وإلى أنهم يزاولونها بطريقة خاطئة. ويرى، في مقابل ذلك، أن الممارسة الحسنة للطقوس والشعائر هي أكبر دليل على نهضة المجتمع وتقدمه، ومنبع رقيه الروحي واستنارته.

---

(١) كتاب الحوار ٦٣/٧

صحيح أن كونفوشيوس كان يعتنق المفاهيم الدينية التقليدية الصحيحة، وكان يؤمن بعبادة السماء والأرواح، وكانت عبادة أرواح الآباء والأجداد، وتقديم القرابين لها واقعًا أساسيًا. وكان دائم النصح لمريديه وأتباعه بضرورة ممارسة الطقوس والشعائر ممارسة صحيحة، إلا أنه رغمًا عن هذا، كان يحجم، كما يشير إلى ذلك كتاب الحوار أو المختارات كما تشيع تسميته بذلك عند الكثيرين، عن مناقشة الموضوعات الدينية مثل الملائكة والكائنات الروحية والقضاء والقدر، مما دفع شراحه المحدثين إلى ضمه إلى طائفة الشكاك أو اللاأدريين، بل ذهب بعضهم إلى اعتباره من الملحدين، بينما ذهب البعض الآخر إلى القول بأن شجاعته لم تسعفه لتوضيح حقيقة آرائه لأتباعه ومريديه لسبب أو لآخر. فحين سأله أحد تلاميذه ذات مرة عن واجب الإنسان إزاء أرواح الراحلين أجابه: " إذا كنت عاجزًا عن أداء واجبك إزاء الأحياء، فكيف يمكنك أن تؤدي واجبك إزاء الأموات " (١)

---

(١) كتاب الحوار ١٠٣/١١.

وعندما سئل، في مناسبة أخرى، عن طبيعة الموت ذاته، أجاب: " إذا كنت لا تفهم الحياة، فكيف يتأتى لك أن تفهم الموت " (١)

وسأله أحد تلاميذه مرة: " هل لدى الأموات علم بشيء أو هل هم بغير علم؟ رفض أن يجيب جوابًا واضحًا صريحًا.

ولما سأله تلميذ من تلاميذه عن حقيقة الحكمة قال له: " إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها، أمكن أن تسمي هذه حكمة "

لقد آلى على نفسه أن يصرف جهود تلاميذه إلى الاهتمام بشئون الإنسان والمجتمع وتنظيم الدولة، وفهم حقيقة الحياة، والانصراف عن الانشغال بموضوعات الأرواح والحياة الأخرى. وتأسيسًا على هذا الرأي، فإن الحكيم هو الذي يرفض حياة العزلة والتخلي عن العالم، ومما قاله في ذلك: " إنني لا أستطيع أن أسير مع أسراب الطيور وقطعان الحيوانات، وإذا لم أنضم إلى البشر فإلى من يمكن أن أنضم؟

---

(١) المصدر السابق.

وإذا لم يكن للحكم الصائب أن يسود العالم، فلا ينبغي لي أن أشارك في إصلاحه ".

فالحكمة، بتعبير آخر، هي نهوض الإنسان بواجباته نحو البشر، مع إجلال الأرواح والآلهة.

إن جوهر الفكر السليم، فيما يرى ذلك كونفوشيوس، هو البحث عن الوحدة الشاملة فيما بين ظواهر الكون المختلفة، والانسجام والوئام والألفة بين العالمين السماوي والأرضي: " وكل ما كان كونفوشيوس يرضى أن يقره من البحوث فيما وراء الطبيعة هو البحث عما بين الظواهر المختلفة جميعها من وحدة، وبذل الجهد لمعرفة ما يوجد من تناغم وانسجام بين قواعد السلوك الحسن واطراد النظم الطبيعية [1]

يتحدث كونفوشيوس، في فقرات عديدة في كتاب الحوار أو المنتخبات، عن السماء، معبود الصين الرئيسي، والسماء، عند قدماء الصينيين، اسم مشترك بين القبة الزرقاء المحيطة بالأرض وبين الإله، وأسموها في الكتب القديمة بالملك أو الملك العلي، واعتقدوا أن الملك العلي هي عليم

---

(١) ديورانت: قصة الحضارة ٥٤/٤

قدير ، يصرِّف السماوات والأرض وما بينهما، وتنفذ مشيئته في النفوس كما تنفذ في الكائنات [1].

أما عند كونفوشيوس، فيشير مصطلح السماء إلى قوة كونية معنوية غامضة لا تقهر، وهو بهذا يرفض النظر إليها باعتبارها كائنًا بشريًا، بل يشير إليها، في موضع آخر، باعتبارها كيانًا عظيمًا يتمتع بالإرادة القاهرة وقدرة الإبادة، ويتميز بالغائية.

ويخضع كل شيء في الكون لمشيئة السماء، ويجري مجراها كالفصول والكائنات والنفوس حتى الثورة والثقة، فكل هذا يتبع مشيئة السماء القادرة على كل شيء، وقد استوجب هذا أن يعمل الإنسان وفق مشيئة السماء أو كما يسميها " بالعناية الربانية الهادية " . كما أشاد بكفاح الأفراد وجهادهم في سبيل الخير، وأبدى رجاءه في أن تعين السماء أولئك الذين يعينون أنفهسم. ولكن كونفوشيوس أظهر، من ناحية أخرى تحسره لأن السماء لا يعتمد عليها، بدليل أن الأشرار كثيرًا ما ينجحون ويوفقون ويزدادون غنى وثروة،

---

(١) انظر: مقدمة الأستاذ محمد مكين (الصيني الأصل) لكتاب الحوار لكونفوشيوس ص ١١

في حين تبوء جهود الأخيار بالفشل أحيانًا. ورغمًا عن ذلك، فقد أمدته فكرة السماء بالشعور بأن هناك في مكان ما من الكون، قوة تقف إلى جانب الإنسان، الذي يكافح وحيدًا من أجل الحق. وبهذا يؤكد كونفوشيوس مشيئة السماء، هذا الكيان الفائق، وقدرتها العظيمة التي تقف دائمًا إلى جانب الحق، وتنصر الخير؛ إذ هي دائمًا في صالحه.

وقد تخيَّل كونفوشيوس نفسه بأنه مبعوث السماء، وأنها عهدت إليه رسالة القضاء على الشر، وفوضته لكي يقوم بدور الملك الفيلسوف، وأن يديم طريقه على الأرض، وهو نفس الدور الذي سيتحدث عنه فيما بعد ذلك أفلاطون في محاورة الجمهورية، والذي عبَّر عنه بقوله:

" ما لم يتولَ الفلاسفة الحكم في الدول، أو يتحول من نسميهم حكامًا إلى فلاسفة حقيقيين، وما لم نرَ القدرة السياسية تتحد بالفلسفة.. فلن تنتهي الشرور من الدول، بل من الجنس البشري " (١)

---

(١) أفلاطون: الجمهورية، ترجمة فؤاد زكريا، دار الكتاب العربي بالقاهرة، سنة ١٩٦٨، ص ٤٧٣

وهناك مصطلح آخر، عند كونفوشيوس، يرتبط بمصطلح السماء، هو مصطلح القدر.. المنهج Ming، الذي يشير إلى معنيين: إمَّا أمرًا، وإمَّا قدرًا، وهذا يتوقف على علاقة المنهج (القدر) بالسماء أو انفصاله عنها. فعندما يظهر القدر مرتبطًا بالسماء، فإنه يسمى أمر السماء أو مشيئة السماء، أمَّا حين يظهر القدر منفردًا، منفصلاً عن السماء، فإنه يعني القدر أو المصير. وبشكل عام، فالقدر عنده هو ضرورة غامضة غير واضحة، تتجاوز إدراك البشر، وقدرتهم على فهمه أو التحكم فيه. وقد قال عندما اشتد المرض بأحد أتباعه: " إن ذلك سيطيح بحياته. إذن إنه القدر.. أن يصاب مثل هذا الرجل بمثل هذا الداء! ". وقال أيضًا عن حتمية القدر: " عندما يجب على الحقيقة أن تذيع، وعندما يجب أن تنحرف، فإنه القدر".

وكل هذا يشير إلى شيوع الاعتقاد بالقضاء والقدر عند الصينيين.

وللقرابين، عنده دلالة عظمى؛ إذ تؤكد الروابط الروحية بين الأفراد بعضهم وبعض من ناحية، وبينهم وبين أرواح الأجداد والآباء من ناحية أخرى، وهذا من شأنه أن

ينزل الأرواح الخيِّرة من السماء لكي تتحد بأرواح الأرض، فيعم الخير والبركة.

وقد ذم كونفوشيوس عادة تقديم القرابين الشائعة في عصره؛ إذ عدها صفقة مبادلة، يضحي صاحبها بالكثير جدًا من المطالب والسلع للأسلاف والأرواح الأخرى، برجاء تلقي قدر أكبر من النعم والبركات، وأوجب في نفس الوقت، القيام بالطقوس وشعائر الأضحية، وتقديم القرابين لأرواح الأسلاف إذا كانت بعيدة عن روح المقايضة، وكان الإخلاص جوهرها. إن القرابين، كما يرى، يجب أن تقدم بنفس الروح التي تقدم بها الهدايا إلى الأحياء، دون انتظار أن يحصل الإنسان على شيء من ورائها، كتوقع الحصول على منفعة أكبر أو دفع مضرة أو درء بلاء. ومن هنا رفض الاعتقاد الشائع بأن الأرواح تنعم بالبركات على من ترضى عنه، وكان يفضل أن يحس المشيعون، في الجنائز وشعائر الحزن، بالحزن الحقيقي عن أن يكونوا مهذبين تمام التهذيب في كل التفاصيل الشعائرية [1]

---

(١) راجع: كتاب الحوار ٣٦/٣

ومن معبودات الدين الكونفوشيوسي، قوى الكون الطبيعية مثل الشمس والقمر والنجوم والكواكب الأخرى والسحاب والمطر والجبال والأنهار وما شاكلها من الكائنات، عبدها الصينيون واستعانوا بها في تيسير أمور حياتهم. وإذا كانت عبادة السماء وتقديم القرابين إليها، مخصوصة بالملك وحده؛ لأنه ابن السماء فإن عبادة الأرض والجبال والأنهار مخصوصة بالأمراء وحدهم [1] وكانت القرابين التي تقدم في حالة عبادة السماء تختلف عن تلك التي تقدم إلى قوى الكون الطبيعية مثل الأرض.

أما عن موقفه من الصلاة، فنادرًا ما كان يبحث فيها، ويلمح إليها قائلا: " إن من يشتم السماء لن يجد إنسانًا يرجوه" . ولم يلجأ، طوال حياته، إلى طلب أي شئ عن طريق الصلاة. ويرى أن الآلهة تحمي الإنسان، دون حاجة إلى العبادة، إذا حرص على أن يكون قلبه على درب الحقيقة، وطاهرًا نقيًا.

---

(١) راجع: كتاب الحوار، مقدمة المترجم ص ١١. ويسمي المترجم هذه القوى الطبيعية ملائكة.

ويرى كونفوشيوس، أن الموت قدر،كُتِب على الأحياء منذ الأزل. وهو يتقبل الموت بلا وجل. وليست له في نظره دلالة معينة أو مغزى رئيسي. أمَّا الجنة والنار، فلا يعتقد فيهما، وإنما يعتقد الجزاء في الدنيا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وهو في هذا لا يختلف عن بقية الصينيين، إذ إن هذا هو معتقدهم جميعًا منذ قديم الزمان. ولا يسأل عن مصير الأرواح بعد خروجها من الأجساد، وإنما يعتقد في أن الأرواح تبقى في الدنيا، وتعيش مع أفراد أسرتها في الغيب، ويذهب إلى القول بأن الأرواح تسر بأنواع الموسيقى إلى جانب تقديم القرابين لها، وفي هذا السبيل يصرف الصينيون أموالاً كثيرة (١).

إن الموت، في نظر كونفوشيوس، ليس شرًا، وهو لا يخيف أحدًا، ويرى أن المرء عندما يشرف على الموت تصبح أقواله حكيمة. وعندما سأله أحد مريديه عن حقيقة شعور الأموات بالهدايا التي تقدم لهم، كانت إجابته غير محددة، إذ رأى أنه إذا أجاب بنعم، فإن الأبناء الصالحين الأخيار سيقطعون عروقهم تفجعًا على أمواتهم، وإذا أجاب

---

(١) انظر: المصدر السابق، مقدمة المترجم ص ١٢

بلا، فإن الأبناء الطالحين العاقين قد يهملون واجباتهم كل الإهمال.

أمَّا عن الفكرة الصينية القديمة التي مدارها أن الملك ابن السماء، فلم يعالجها كونفوشيوس معالجة مباشرة، إذ شاع الاعتقاد بين الصينيين بأن ملوك الصين القديمة والحكام الإقطاعيين يحكمون كمفوضين من السماء، ومن هنا لا يجوز الخروج عليهم نظرًا لما يتمتعون به من تفويض سماوي وامتيازات أرستقراطية. وإذا كان كونفوشيوس قد امتنع عن مهاجمة هذه الفكرة التقليدية، إلا أنه اشترط في الحاكم الصالح توافر شروط العلم والحكمة ورجاحة العقل والعدالة والخلق الصالح، دون نظر إلى منبته، إلى درجة أن توقع أن يلي العرش أحد أتباعه من ذوي الأصل البسيط المتواضع.

وعلى الرغم من قوة نزعته (منحاه) الدينية، إلا أنه صدف عن اتخاذ معتقداته الدينية أساسًا لفكره الإنساني العميق، واعتبر الحواس (الملاحظة والمشاهدة) والتحليل، مصدرين هامين من مصادر المعرفة وإدراك الحقائق، ومما قاله في هذا الصدد: " على المرء أن يسمع الكثير وأن يدرك

الجانب المشكوك فيه، ويتكلم بحذر فيما يتصل بالباقي.. انظر كثيرًا، لكن لا تهتم بالمعنى غير الواضح، وتصرف بحكمة فيما يتعلق بالبقية ". ثم إنه لم يشر من قريب أو من بعيد، إلى إدراك الحقيقة عن طريق الإلهام أو الحدس (الإدراك المباشر) والذي هو أشبه ما يكون بالومضة السريعة المفاجئة، بل نجده، على العكس من ذلك، يقرر في صراحة، أن التأمل وحده لا يؤدي إلى الحكمة، بل الواجب: " أن تسمع الكثير، وتختار ما هو صالح وتتبعه، وأن ترى الكثير وتتذكره "، فهذه هي الخطوات التي نصل عن طريقها إلى الإدراك السليم.

وقد أضفى كونفوشيوس على أفكاره الدينية وازعًا أخلاقيًا، بعد أن كان الباعث المحرك لهذه الأفكار هو التحكم في القوى الطبيعية عن طريق الطقوس والشعائر لضمان حسن الطالع، وتجنب الحظ السيء. ويرى أن خدمة البشر هي الطريق الطبيعي لخدمة الآلهة. ومن هنا أقبل على دراسة المشكلات الإنسانية، وركزّ على علاقة الإنسان برفاقه البشر، ونأى بالأخلاقيات عن الميتافيزيقا، وذلك هو جوهر تعاليمه الإنسانية.

السياسة في مذهب كونفوشيوس

الربط بين السياسة والأخلاق:

حرص كونفوشيوس في نظامه السياسي الاجتماعي على الربط بين السياسة والأخلاق، واتخاذ الأخلاق أساسًا لهذا النظام؛ إذ إن الفكرة السياسية عنده لا يمكن عزلها عن المعنى الحقيقي للأخلاق. ولذلك نلاحظ تغلغل بعض العناصر الأخلاقية حتى في داخل النظريات السياسية لأولئك الذين توهموا أنهم عزلوا الأخلاق عن السياسة. فالأخلاق هي أساس أي نظام سليم، ولا يتحقق هذا النظام فيما يرى ذلك كونفوشيوس، إلا إذا عمل الحاكم على إكمال أخلاق الأفراد أنفسهم عن طريق التربية السليمة.

إن للأخلاق سمات وصفات أساسية، أولها أنها تخلع الانسجام والتآلف والاطمئنان والوحدة فيما تحل به سواءً كان فردًا أم دولة. فالانسجام الداخلي والاتساق والكمال النفسي للفرد، تؤدي كلها إلى انسجام الدولة ووحدتها واتساقها وكمالها في النهاية، وذلك باعتبار أن الفرد هو صورة

مصغرة للدولة، كما أن الدولة تتمثل فيها الأخلاق بصورة مكبرة. ومن هنا نجح كونفوشيوس في القضاء على تجزئة السياسة عن الأخلاق عند قدماء الصينيين.

وقد امتاز كونفوشيوس، في اعتباره الأخلاق أساس إصلاح المجتمع، وإقامة الحكم الصالح، عن جماعة التشريعيين (القانونيين) الذين ذهبوا إلى القول بأن القانون، لا الأخلاق، هو أساس الحكم الصالح، وأن القوة أو سلطة النظام الحاكم هي الأساس الأول لإصلاح المجتمع أو الدولة عن طريق إلزام الدولة الأفراد باتباع الأخلاق القويمة. كما امتاز عن مذهب (لاو – تسو) أو المذهب التاوي الذي يشجع على اعتزال الأفراد المجتمع وانسحابهم منه، دون أدنى تفكير في الأفراد الآخرين الذين يشاركونهم في الحياة الجمعية، إذ ينصح بألا نتدخل في أي أمر من أمورهم كما يطالب الدولة بألا تتدخل في أمر من أمور المجتمع. أضف إلى ذلك أن (لاو – تسو) يختلف أيضًا مع معظم الفلاسفة في دعوته إلى عدم تمجيد المعرفة، والتغاضي عن كافة الشروط السوية لإقامة المجتمع العادل، وباختصار فإنه لا يرى شيئًا سوى الشر في فكرة الحكومات. أمَّا

كونفوشيوس فقد اهتم بالطبيعة الإنسانية ووصفها بالطبيعة الخيِّرة، كما اهتم بالمجتمع وآمن بأن أفراده كائنات اجتماعية هامة، لا جود لها ما لم تكن مندمجة فيه تمام الاندماج، وباذلة جهدها لكفالة السعادة للمجتمع بأسره، مما يؤكد في النهاية إنسانية المذهب الكونفوشيوسي.

وسوف تتردد هذه المعاني، من بعد ذلك، عند الفيلسوف اليوناني أفلاطون الذي اعتبر علم السياسة علمًا أخلاقيًا غايته تحقيق العدالة في دولة المدينة، وأن الفضيلة هي تحقيق العدالة في النفس. ثم إن العدالة إذا تحققت داخل الأفراد، عن طريق سيطرة العقل على الجسم ونوازعه ورغباته، انعكست، بالتالي، على المجتمع. ولم كانت السعادة ترتبط، عنده، بالعدالة، أصبحت السعادة هي الخير الأقصى.

ومن جهة أخرى، عارض السوفسطائيون، الذين ظهروا في بلاد اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، بين الطبيعة البشرية والأخلاق، وأصبحت هذه الطبيعة في نظرهم حشدًا من النزوات والميول والرغبات، واعتبروا الفضائل رذائل مقنعة، وأن السعادة تقتضي إشباع الرغبات والميول بشجاعة دون نظر إلى دين أو قوانين أو أعراف. والحق

عندهم، هو حق القوي، والحرية هي حريته وحده، ومن هنا ذهبوا إلى القول بأن القوة والعنف والسيطرة هي أساس نشأة الحكومة والدولة.

وفي القرن السادس عشر الميلادي ظهر في إيطاليا المفكر والفيلسوف (نقولا ماكيافللي ١٤٦٩ – ١٥٢٧ م) ليحذو حذو السوفسطائية في فلسفتهم الأخلاقية والسياسية، ويردد نفس أقوالهم، إذ فصل ، مثلهم بين السياسة والأخلاق، واعتبر علم السياسة علمًا قائمًا بذاته. وقد دعا ماكيافللي إلى القسوة والإرهاب والخداع والغدر والكذب وإهدار الإخلاص والصداقة والأمانة، وأن هذا كله من شأنه، المحافظة على سلامة الدولة، وتحقيق الرفاهية.

ويرسم ماكيافللي مصورًا للفضائل التي ينبغي أن يتصف بها الأمير، ويقيس بمقياسه غاية في الضبط ما هو السخاء والتبذير والقسوة والرحمة، وحسن النية والمكر، ويقرّ الكذب بلا أدنى تردد، والغدر والسم والاغتيال كلما كانت هذه الوسائل العنيفة نافعة، والغرض الوحيد هو البقاء في

السلطان بأي ثمن كان، وإن النجاح ليبرر كل انتهاك للحرمات. (١)

ويبدو أن ماكيافللي في فصله السياسة عن الأخلاق، قد فقد كل تمييز بين الخير والشر، وأصبحت فلسفته ضربًا من الخزي عند رجال الدولة حتى أفسدهم سلوكًا. ولم يكن الأخلاقيون وحدهم هم الذين يزرون عليها بل الملوك الذين يُدعَى أنها قد ألفت لهم، نبذوها نبذًا. وإنها لتستحق هذا المقت الإجماعي. ومن المحال على المرء أن يقرَّها متى تفطن في كتاب الأمير.

وإذا كان كونفوشيوس قد أنكر، منذ آلاف الأعوام، الفصل بين السياسة والأخلاق، فإن هيجل في العصر الحديث، يذكر هو الآخر مثل هذا الفصل، إذ إن الدولة عنده، كما ورد في (فلسفة القانون) هي الفكرة الأخلاقية الملموسة.

ويؤكد الدرس الذي يلقيه سقراط على تلميذه السيبياد صحة ما قرره كونفوشيوس منذ قرون، من حيث ضرورة

---

(١) أرسطو طاليس: السياسة، ترجمة أحمد لطفي السيد، الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة، من مقدمة بارتلمي سانتهيلير للكتاب ص ٦٩.

اتخاذ النظام السياسي الأخلاق أساسًا له، ووجوب أن يتحلى الأفراد في المجتمع بالأخلاق القويمة حيث يقول:

" بل إن الدرس الذي كان يلقيه سقراط على تلمذه السيبياد ما زال أولى بالسياسة أن يتلقوه وأن ينتفعوا به: " يجب قبل كل شيء يا صديقي أن تفكر في اكتساب الفضيلة أنت وكل رجل يريد ألا يعني بنفسه وبماله من الأشياء فحسب، بل أيضًا بالدولة وبالشئون التي هي للدولة " [1]

الحكومة الصالحة:

ولما كانت السعادة (الخير) هي غاية أفراد المجتمع وأملهم المرتجى، فإن الحكومة الصالحة، في نظر كونفوشيوس، هي التي تعمل جاهدة على تحقيق هذه الغاية، وتكفل في النهاية السعادة لجميع الأفراد. ولكن لمَّا كانت الأنانية التي فُطِر عليها معظم الأفراد تحول بينهم وبين تحقيق هذه الغاية، إذ كثيرًا ما يؤثر الفرد لذة عاجلة أقل على أخرى آجلة أعظم، ويفضل سعادته الفردية على سعادة المجموع. ولتصحيح هذه النزعات والاتجاهات، أصرَّ

---

(١) من مقدمة بارتلمي سانتهيلير لكتاب السياسة لأرسطو ص ٢١

كونفوشيوس على ضرورة تربية الأفراد تربية عامة شاملة، واعتبر الفرد المستنير ركن الدولة الـركين، كمـا رأى أن تحقيق سعادة المجتمع بأسره تقتضي العمل بمبدأ تبادل الأخذ والعطاء Principle of reciprocity ويعرِّفه بأنـه: " امتنـاع الفرد عن إتيان فعل يكره توجيه الغيـر إيـاه إلـى ذاتـه". أو بتعبير آخر: " لا تعامل الناس بما لا ترضى أن تُعامَـل به"[1] . كما يعرفه أيضا بصورة أكثر إيجابيـة فيمـا يلـي: " الرجل الفاضل حقًا هو من يرغب في تثبيت أقدام الناس، كما يرغب في تثبيت قدميه، يريد لنفسـه النجـاح ويكـافح ليساعد الآخرين لينجحوا، ويجد في أمنيات قلبه المبدأ لسلوكه تجاه الغير في منهج من الفضيلة الحقة" .

إن التربية الشاملة والاستنارة الخلقية، تلعبـان دورًا كبيرًا في إقناع كل فرد بأن يربط سعادته الفرديـة بسـعادة المجموع برباط وثيق ينفصم. ثم إن الشعور بتساوي الأفراد، يؤلف بينهم في العمل بهذا المبدأ المشار إليه، ويقنع كل فرد أن يتبع هذا المبدأ في توجيه حياته كلها.

---

(١) كتاب الحوار ١١٢/١٢ و ١٥٤/١٥

الأخلاق، إذن شرط لازم وضروري لحكم الشعب، كما أنها تشير، في نفس الوقت، إلى عظم الدور الذي يجب أن تنهض به الحكومة الصالحة من حيث غرس الأخلاق الطيبة، ذلك أن الأخلاق إذا فسدت فسدت الأمة كلها، وهذا ناتج من تشبيهه الأخلاق بالحواجز التي تحول بين الناس وبين الانغماس في الشهوات والمفاسد، وإلى مثل هذا يشير كونفوشيوس في كتاب الطقوس حيث يقول إن ثمة شروط رئيسية لازمة لحكم العالم: الأخلاق، ووجود السلطة، وحب التاريخ، وفي حالة عدم توافر شرط من هذه الشروط، فإن هذا من شأنه أن يؤدي إلى فشل الحكومة، مهما كان الحاكم ممتازًا.

ومعنى هذا أن وجود الحكومة شرط هام وضروري لكفالة السعادة وتحقيق النظام، واستقرار الأمور في المجتمع. ويقول في ذلك:" إن ذات الأمير كالهواء، وذات الجمهور كالعشب. وعندما يمس الهواء العشب، ينحني العشب، ولا يتحقق النظام إلا بالسلطة " (١)

---

(١) راجع كتاب الحوار ١١٧/١٢

كما يشبه الحكومة الصالحة التي تنهج في حكمها نهج الفضيلة بالنجم القطبي الذي لا يتحول عن مكانه، والذي تطوف النجوم كلها حوله.

والحكم، عنده، هو تفويض أو توكيل من السماء للحاكم، وأن السماء أو الإله، هي التي قلدت الملك منصبه واختارته على أنه ابنها؛ مما يعطيه سلطة سياسية على رعاياه، الذين يكلفون بدورهم " بالمناصب " عن طريقه.

وكما أن الملك يحكم بفضل : " تفويض" السماء له، فكذلك يفعل أمراء الإقطاع في مملكته، إذ تكون لهم سيادة محلية تحت إشراف الملك. وأمراء الإقطاع، بدورهم، وهم يفوضون الإقطاعيين التابعين لهم بالقيام بواجبات معينة [1] . وهكذا نجد هرم الحكم كله يقوم من القمة إلى القاع على إرادة السماء. فالحاكم بهذا، وكما ورد عن كونفوشيوس وفي الكتب الصينية القديمة، هو قبة العالم، وحلقه الاتصال أو الانفصال بين السماء والأرض، وأن سلوكه إمَّا أن يكون منظمًا أو مخلاً للطبيعة.

---

(١) جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٢٧٣.

وسلطان الملوك الإلهي، عند كونفوشيوس، ليس سلطانًا مطلقًا أو أبديًا، إذ إنه مشروط وموقوت بالتزام الحاكم بواجباته وتمسكه بالأخلاق القويمة، فإذا حاد الحاكم عن الطريق السوي أو أهمل واجباته، سحبت السماء منه تفويض الحكم، لحرصها منذ البداية على اختيار ذوي الأخلاق الفاضلة الممثلين لها على الأرض.. ومما قاله كونفوشيوس في هذا المعنى:

" إن توكيل السماء للحاكم ليس أبديًا، وهذا يعني أن الحاكم يظل متمتعًا بالتوكيل الإلهي طالما استخدم هذا التوكيل فيما يعود على شعبه بالخير، كما يفقد هذا التوكيل عندما ينتهج سياسة الظلم " (١) .

وقال أيضًا: " إن بقاء الأمير أو الحاكم متوقف على رغبة الله أو إرادته وإرادة الله هي إرادة الشعب. فإذا نال عطف الشعب وحبه فإن الله العلي السامي ينظر إليه بعين الرضا، ويوطد عرشه. أما إذا فقد حب الشعب وعطفه فإن العلي السامي يصب غضبه عليه؛ ومن ثم يفقد دولته " (٢)

---

(١) كتاب التاريخ، فصل السياسة.

(٢) المصدر السابق.

لقد كانت رؤية كونفوشيوس، وكل مفكري الصين القدامى، للحكم أنه اختيار سماوي وتفويض منها للحاكم، يستخدمه في إسعاد شعبه، وجعل العالم منسجمًا متناسقًا، وتدريب هذا الشعب على المهمة التي يفرضها عليهم الانسجام الاجتماعي والكوني عن طريق التربية الأخلاقية السليمة، والطقوس والشعائر. أما إذا أساء الحاكم استخدام هذا التوكيل، فيجب على الرعية، كما أشرنا، تنحيته عن الحكم، وعدم الالتزام بطاعته أو الخضوع لإرادته.

وإذا كان المفكرون الصينيون القدامى يتفقون مع مفكري الشرق القديم خاصة في مصر والهند في القول بأن الحكم تفويض إلهي، وأن الحاكم ابن السماء ومن نسل الآلهة، إلا أنهم يختلفون عنهم من حيث القول بأن هذا التفويض ليس مطلقًا أو دائمًا أبديًا، بل هو مشروط باستخدام الحاكم له لمصلحة الشعب لا لمصلحته الشخصية. فمصلحة الشعب وخيره وسعادته هي أساس الحكم عند كونفوشيوس، وذلك بالنظر إلى الصلة الوثيقة بين السماء والشعب، وبالنظر أيضًا

إلى أن صوت الشعب هو خير معبر عن صوت السماء أو الإله. وفي ذلك يخاطب أحد الأمراء قائلا:

" إذا نلت حب الشعب، فإنك تنال بذلك حكم الإمبراطورية، وإذا فقدت حب الشعب فقدت الإمبراطورية"(١).

ومما يوضح هذا المعنى، أيضًا، ما تضمنه كتاب التاريخ حيث يقول:

" إن ما تراه السماء أو الله وتسمعه ليس شيئًا آخر غير ما يراه الشعب ويسمعه. وما يعتبره الشعب جديرًا بالثواب أو العقاب هو ما تعتبره السماء جديرًا بأن يثاب صاحبه أو يعاقب، فهناك اتصال وثيق مستمر بين السماء والشعب. وعلى من يقومون بشئون الحكم في الشعوب المختلفة إذن أن يراعوا كل ذلك ويتدبروه ".

فصوت الشعب، إذن، من صوت الله، وهو نفس المعنى الذي سوف يتردد صداه من بعد ذلك بقرون عند مفكري العالم الغربي في العصر الحديث. ومعنى هذا أن المصدر الحقيقي للسلطة السياسية، عند كونفوشيوس، هو

---

(١) كتاب الطقوس.

الشعب، وأن أي حكومة لا تحتفظ بـــاحترام الشـــعب وثقتـــه يكون مصيرها السقوط لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً. ويرجع الشرور والمصائب التي امتلأ بها عصره إلى وجود مثل هذه الحكومة الفاسدة.

إن فساد الحكم، عنده يرجع إلـــى تفشـــي الأنانيـــة والجهل أو إلى قصور الإمكانيات والمؤهلات عند القـــائمين على الحكم الناشئ عن تولي الحكام مناصبهم عـــن طريـــق الوارثة. ولا يتحقق علاج هذا الفساد إلا إذا تقلد مقاليد الحكم أكفأ عناصر الأمة علمًا وخلقًا. ولا تتعلق هذه الأهلية والكفاية بأي نسب أو ثروة أو مركز اجتماعي، بل يتعلقان، كما أشرنا بالخلق القويم والمعرفة المستنيرة، ثمرة التربية الصـــحيحة؛ ومن ثم يجب الاهتمام بنشر التربية، وتعميم التعليم الرشـــيد وإشاعتهما في جميع أرجـــاء الـــبلاد حتـــى يمكـــن إعـــداد الموهوبين لتولي مهام الحكم، والإشـــراف علـــى وظـــائف الدولة، بغض النظر عن أصلهم ومنبتهم. إن المعرفة التـــي تؤثر في الواقع، عنده هي ينبوع الخلاص الإنساني.

ومعنى هـــذا أن شـــرط الحكـــم الصـــالح وبقـــاءه وازدهاره، فيمـــا يـــرى ذلـــك كونفوشـــيوس فـــي كتابـــه

" مذهب الوسط " هو توافر الرجال الصالحين:" فإذا افتقر المجتمع إليهم، تداعى الحكم وانهار. وعلى الناس أن يبذلوا اهتمامًا فائقًا بشئون الحكم، مثلما تعنى الأرض بإنماء الأشياء. وهنا يصبح الحكم كالشجرة الضخمة أصلها ثابت وتطاول فروعها السماء. فإدارة الحكومة تستند في المكان الأول على الرجال الصالحين. وفي مكنة الحكام أن يظفر بالرجال الصالحين بفضل قوة شخصيته، ويتأتى تقوية الشخصية باتباع السبيل الحسن. ويدركه المرء بوساطة ممارسة القيم الإنسانية، وفي طليعتها محبة أفراد العائلة ولاسيما الوالدين".

وقد حرص في هذا الصدد على تعليم تلاميذه وجوب الالتزام بالمبدأ الأخلاقي، وتدريبهم على التفكير السليم، والتصرف الحكيم في مختلف المواقف التي قد يجد الموظف المسئول نفسه فيها، كما علمهم الكثير عن مبادئ الحكم، وبرهن الكثير منهم، في المران الفعلي، عندما أسندت إليهم الوظائف الفعلية، على كفاءتهم وقدراتهم الفائقة في أن يصبحوا مسئولين ناجحين.

ولما كان توريث الحكم هو التقليد السائد في الصين، ولما كان كونفوشيوس يخشى أن تصد تعاليمه الحكام الوراثيين بضرورة أن يتخلوا عن عروشهم الوراثية أو أن يتعرض لبطشهم أو إخمادهم لتعاليمه؛ فمن ثم حاول إقناع هؤلاء الحكام بأن يملكوا ولا يحكموا، وأن يدعوا تصريف أمور الدولة إلى الوزراء الذين يختارون طبقًا لمؤهلاتهم وكفاياتهم.

ويعتبر الوزير أعلى درجة من درجات المسئولية الأخلاقية الأدبية، ويشترط فيه الإخلاص لحاكمه، والنصح، وأن يكون صريحًا معه، متجنبًا الانغماس في الشهوات حتى لا يصرفه ذلك عن جليل الأعمال، معتدلاً في كل شيء، وأن يكون عادلاً. وعندما سأله أحد مريديه عن موقف الوزير تجاه حاكمه، أجاب كونفوشيوس: " على الوزير ألا يخادع الحاكم، وله أن يعارضه، إذا لزم الأمر، وأن يكون صريحًا معه". وقد ذكر ذات مرة لحاكم ولاية (لو): إنه إذا كانت سياسات الحاكم خاطئة، ولم يحاول المحيطون به معارضته وتقديم النصح له، فهذا كفيل بالقضاء على الدولة وتدميرها.

وعلى الحاكم أن يحسن معاملة وزرائه، بأن يتجنب العنف معهم أو الإساءة إليهم أو التشكيك في وفائهم، فيتذمروا منه، وأن لا يلتمس من رجل واحد منهم المقدرة على جميع الشئون" [1]

أخلاق الحاكم وواجباته:

اشترط كونفوشيوس أن يدير دفة الحكم أكفأ عناصر الأمة علمًا وخلقًا، فلكي ينجح الحاكم في مهمته يشترط فيه أن يكون متحليًا بالعلم والحكمة والعدالة والصدق والكرم والوقار والكرامة والهمة، وأن يكون مخلصًا في حديثه، حازمًا في سلوكه، رحيمًا بشعبه، بشوشًا لجميع الناس، مؤثرًا لمصالح شعبه على مصالحه الشخصية، وأن يكون متعمقًا في فهم " قوانين السماء " أي القواعد التي يسير بمقتضاها المجتمع الإنساني، وتخضع لها الظواهر الطبيعية [2] .

ولما كانت العائلة هي وحدة المجتمع الإنساني وقاعدته، فيجب على الحاكم أن يتمرن فيها على حسن معاملة

---

(١) انظر: كتاب الحوار ٣٤/٣ و ١٨٣/١٨

(٢) انظر: كتاب الحوار لكونفوشيوس ٣٦/٣و ٤٠/٤و ١٤٧/١٤

الناس وقيادتهم وفق مبادئ العدالة والمحبة، وأن يحرص على تعليم عائلته نفسها هذه المبادئ، فإن سادتها النزعة الإنسانية، ازدهرت هذه النزعة الإنسانية في المجتمع بأكمله، وانتظمت أموره، وغمر العدل أرجاءه. ثم إن الحاكم بتوفيقه في تعليم عائلته وتهذيبها، يوفق في تعليم رعاياه وتهذيبهم؛ لأن الفرد إذا فسد فسدت العائلة، وبالتالي يفسد المجتمع، وتضطرب أموره، أما إذا ساد النظام العائلة، فإنه يسود المجتمع ويكون حكمه صالحًا. ومما قاله كونفوشيوس في هذا الصدد:

"إن فن القيام بحكم سليم يقتضي أن يكون الحاكم قادرًا أولاً على إقامة نظام سليم في أسرته، ومن الضروري إذن بالنسبة للشخص الذي ينتمي للطبقة الحاكمة أن ينظم سلوكه الشخصي، وتنظيم سلوكه الشخصي يقتضي أن يقوم بواجباته إزاء أقاربه والمتصلين به، ومن ثم إزاء الأفراد الذين ولي أمرهم. ولكي يستطيع أن يقوم بهذه الالتزامات عليه أن يفهم طبيعة المجتمع الإنساني، وأسس التنظيم

الاجتماعي إنما يدرس القواعد الإلهية والقوانين الربانية التي تسود المجتمع الإنساني " [1]

لقد ألزم كونفوشيوس الحاكم، لكي يقوم بأعباء الحكم بشكل سليم، بالتزامات عديدة وواجبات هامة، يأتي في مقدمتها:

أن يتحلى بالفضائل الإنسانية الشخصية مثل العدل، وصدق العزيمة، وخلوص النية، والتدقيق في استخدام الكلمات استخدامًا صحيحًا، ومراعاة آداب اللياقة والذوق السليم وجمال المظهر، وتجنب مجالس النساء؛ لأنهن في نظره أس البلاء ومصدر شقاء الإنسان ومن هنا كانت كراهية كونفوشيوس وبغضه الشديد لهن.

وأن يحرص على إنسانية علاقاته الاجتماعية، بأن يعامل الناس معاملة اعتبار واحترام، دونما حاجة إلى القوة، وأن يعمل على تطهير صحبته من الطالحين والمتزمين ضيقي الأفق، فلا يصادق إلا من يشبهه، وأن يحتقر الماديات، و يعلي من شأن القيم الروحية والأخلاقية.

---

(١) كتاب الطقوس، فصل الانسجام المركزي.

يقول كونفوشيوس في كتاب الحوار ١٧/١: " من حكم مملكة وجب عليه العناية بشئونها والصدق في الوعد والوعيد لأهلها والاقتصاد في نفقاتها والمحبة لرعاياها ".

أمَّا بالنسبة لأهله، فمن أوجب الواجبات عليه التودد إليهم والمحافظة عليهم ووضعهم في المكان اللائق بهم، فالحاكم الصالح لا يهمل أهله. وعندما سأله أحد أتباعه عن كيفية حمل الحاكم الناس على إجلاله والإخلاص له والالتزام بجانب الفضيلة؟ أجاب: " فليرأسهم في وقار – يحترموه. وليكن عطوفًا عليهم رحيمًا بهم، يخلصوا له. وليقدم الصالحين. ويعلم العاجزين، يحرصوا على أن يكونوا فضلاء" . إن حفظ زمام الشعب في أيدي الحكام، يتطلب، فيما يرى ذلك كونفوشيوس، أن يحرص الحكام على الأخلاق الطيبة.

وإذا كانت القدوة الحسنة من أوجب واجبات الحاكم، فإن حسن اختيار الموظفين الملائمين للمناصب يعد من أهم واجباته: " لتكن غايتك الأولى بأن يكون موظفوك أكفاء، وعليك أن تغض الطرف عن هفواتهم الصغيرة " وقد قال كونفوشيوس، أيضًا، في كتابه " عقيدة أو مذهب الوسط:

" إن تصريف شئون الحكم إنما يقوم على (استعمال من يصلح له من الناس) وما من سبيل إلى الحصول على هؤلاء الناس إلا أن تكون أخلاق الحاكم نفسه صالحة ".

فعلى الحاكم الذي يعرف الخير ويريده لشعبه أن يعنى باختيار موظفي دولته، وأن يضع الإنسان الكفء في موضعه المناسب، وأن يبتعد عن التعاون مع الخبثاء والمنافقين والانتهازيين الذين ليس لهم من شهوة إلا شهوة الوصول إلى الحكم. وعلى الحاكم أن يحسن معاملة هؤلاء الموظفين والمسئولين، وأن يراعي قدراتهم ويطلق أيديهم في شئون وزاراتهم، متحاشيًا بذلك تركيز السلطة في يديه.

ومن واجب الحاكم تشجيع التعليم ورعاية الفنون النافعة، والنهوض بها و نشرها في جميع أرجاء البلاد، لتيسير إعداد الموهوبين لتولي وظائف الدولة.

ثم إن الارتقاء بمستوى الشعب يتطلب من الحاكم ووزارته المؤلفة من الرجال الموهوبين تقليص حجم علاقاتهم الخارجية مع الدول الأخرى، وأن يكتفوا بغلاتهم التي تنتجها أرضهم الزراعية بديلاً عن غلات هذه الدول، حتى لا يكون هذا سببًا لشن الحرب عليها. ومن الواجب

عليهم، أيضًا، محاربة الإسراف والتبذير في الدولة خاصة في بطانة الملك.

كما يحتم الواجب على الحاكم أن يحسن استقبال الأجانب، والإفادة من عملهم وثقافتهم إذا كانوا علماء مثقفين. وأن يهتم بأمراء الولايات الأخرى ورفاهيتهم ويبادلهم احترامًا باحترام، وهو بهذا ينشر روح الاحترام والإجلال لشخصه: " ذلك أنه لو تعلم قواعد الأخلاق فإنه لا شك يعرف الوصول إلى الطريق السليم، ولو احترم الأفراد الجديرين بالاحترام فلن يغتر بالأفراد المخادعين. وبتوددة إلى ذوي قرباه يجعل الوئام سائدًا بين أفراد أسرته. وباحترامه للوزراء سيجنب نفسه الخطأ. وإذا استطاع أن يوحد بين مصلحته والصالح العام فإن الإخلاص وروح التضحية سيسودان أفراد دولته. وبإظهاره روح الأبوة بالنسبة لشعبه يجد الأفراد وقد وهبوا حياتهم لفعل الخير. وعندما يشجع الحاكم الفنون النافعة تزيد الثروة والدخل القوميين ويعم الرخاء. وإذا عطف على الأجانب، فإن الأفراد من جميع دول العالم سيأتون زمرًا وجماعات. وباحترام

الحكام للأمراء من كل ولاية، إنما ينشر روح الاحترام والإجلال لشخصه [1] ".

وتهدف الحكومة الصالحة إلى تحقيق ثلاثة أمور: الكفاية من الطعام (التموين الجيد)، والكفاية من العتاد الحربي (الجيش الجيد) ، وثقة المحكومين بحكامهم (ثقة الشعب) وإذا كان من الممكن الاستغناء عن الجيش أولاً، ثم عن الطعام ثانيًا، إلا أنه من المتعذر تمامًا التضحية بالثقة: لأنه " إذا لم يكن للناس ثقة بحكامهم، فلا بقاء للدولة". أو بتعبير آخر " إذا فقد الشعب ثقته كانت أية حكومة محالاً" وفي ذلك يقول كونفوشيوس: " من ضروريات السياسة الأقوات الوافية، وذخائر الحرب الكافية، وثقة الرعية. وإذا اضطررنا إلى حذف شيء من هذه الأشياء الثلاثة، فلنبتدئ بحذف ذخائر الحرب ثم حذف الأقوات؛ لأن الموت كان حظ الإنسان منذ سالف الزمان. ولكن ثقة الرعية لا يمكن حذفها؛ إذ لا تقوم السياسة إلا بها " [2]

---

(١) كتاب الطقوس، الانسجام المركزي، الفصل ٨.

(١) كتاب الحوار ١١٣/١٢ و ١١٤

وإذا كانت القوانين هي إحدى وسائل الحكومة، إلا أن كونفوشيوس يؤكد أن القدوة خير من القانون، والشعب لا يقاد بالقانون، بل بالأخلاق. فلو حاول الحاكم أن يرشد الشعب عن طريق سن القوانين، وحاول أن يحافظ على النظام عن طريق العنف وفرض العقوبات، فإن نتائج ذلك ستكون سيئة، إذ سيحاول الشعب التملص من ربقة القوانين، وبالتالي يسود الخداع والتمويه والتحايل لتجنب العقوبات في كل مكان. أما إذا قادهم عن طريق الأخلاق الطيبة، وكبح جماحهم بقواعد اللياقة (لي)، فإن الشعب، على العكس، سيسعى إلى إصلاح نفسه وتقويمها، وتجنب الانحراف عن الحق. ومما قاله كونفوشيوس في ذلك:

" الرعية إذا قدتها بالأحكام وأصلحتها بالعقوبات، ستحاول التخلص منها، وهي غير مستحية من ارتكاب الجرائم، وإذا قدتها بالفضائل وأصلحتها بالآداب، تستحي من ارتكاب الجرائم، وهي صالحة " [1].

ومعنى هذا أن زيادة الجرائم، وكثرة عدد اللصوص، مرتبط بكثرة القوانين وزيادة الشرائع.

---

(١) كتاب الحوار ٢/٢١

إن وسيلة الحكم الأولى عنده، هي، إذن، القدوة الصالحة، بما يفيد أن الحاكم يجب أن يكون المثل الأعلى في الحكمة، والقدوة في العدل، حتى ينتهج الناس نهجه، ويحذون حذوه، فيعم السلوك الطيب، وتتصلح أحوال الجميع، ويمضي كل شيء على أحسن حال، دون حاجة إلى إصدار الأوامر أو اللجوء إلى العقوبات. ومثل هذه الحكومة، هي بالقطع، حكومة صالحة عظيمة، فيما يرى ذلك كونفوشيوس، تفرض الاحترام دونما حاجة إلى العنف أو العقاب الذي ينزل بالمخالفين.

وقد اشتكى أحد تلاميذه من كثرة اللصوص، وتضايق من وجودهم، فسأل كونفوشيوس عن الطريقة التي تمنع تكاثرهم وازديادهم فأجاب قائلاً: " إن لم يكن الحاكم جشعًا طماعًا لا يسرق الأفراد ولو بالمكافأة "[1]

وهذا يفيد أن الحاكم إذا اتخذ من نفسه أسوة حسنة لرعيته، اقتدى به الأفراد، ونهجوا نهجه؛ وبالتالي يختفي الفساد من المجتمع ويعم الصلاح.

---

(١) كتاب الحوار ١١٧/١٢

واستفسر أحد مريديه، في إحدى المرات، عن جدوى قتل الفاسدين ممن لا مبدأ لهم ولا ضمير، وأثر ذلك في إجبار الناس إطاعة القوانين لصالح أصحاب المبادئ والضمائر، فأجاب: وما حاجتك يا سيدي إلى القتل في قيامك بأعباء الحكم؟ إن الناس يقتدون بالحاكم، فلو صلح حاله صلحت أحوالهم ولو ساءت أموره ساءت أمورهم، وإذا كانت نيته الصريحة فعل الخير، يصبح الناس أخيارًا. إن العلاقة بين الحاكم والمحكومين لشبيهة بالعلاقة بين الريح والأعشاب البرية، فالأعشاب تنحني إذا هبت عليها الريح القوية [1].

ولعل هذا هو السبب في اتهام بعض العلماء كونفوشيوس بالفوضوية نظرًا لاعتقاده بأن الحكومة والنظام والقانون الوضعي سوف لا يكون من داعٍ لوجودها يومًا ما. ولكن كونفوشيوس، في حقيقة الأمر، لم يكن فوضويًا أو متطرفًا، إذ أدرك الحاجة إلى حكومة صالحة، وهاجم مساوئ الحكومات الظالمة التي كانت فاشية في عصره، واعتقد أن الأفراد إذا تخلقوا بالأخلاق القويمة، وكان الحاكم نفسه عادلاً قويمًا، فإن هذا كفيل بجعلهم يسيرون بشكل

---

(١) انظر: كتاب الحوار ١١٧/١٢

طبيعي تلقائي دون حاجة إلى قوانين أو عقوبات. وهو بهذا يقف موقفًا مناقضًا لجماعة القانونيين التي كانت تعاصره، وترى في القانون أداة الحكم الأولى لتقويم الأخلاق وقيادة الشعب.

المجتمع الكونفوشيوسي مجتمع طبقي

المجتمع عند كونفوشيوس مجتمع طبقي، يتميز كل فرد فيه بوضع اجتماعي محدد تحديدًا دقيقًا يتفق مع أخلاقه وعمله بل ونسبه. ومن الأمور الواضحة أنه كان يوجد فارق كبير بين النبلاء والعامة. وتتألف طبقة النبلاء، في ظل النظام الإقطاعي للصين القديمة، من السادة الإقطاعيين والوزراء وكبار موظفي الدولة، وكان هؤلاء جميعًا سادة الشعب سياسيًا واقتصاديًا، وعلى رأس هؤلاء جميعًا كان الإمبراطور (ابن السماء). وكان كل العامة تقريبًا، فيما عدا قلة من الصناع المحترفين المهرة، فلاحين، وربما كانوا عبيدًا في حوزة سادتهم الأعلين. وكان النبلاء يحصلون على إقطاعياتهم من الإمبراطور مباشرة، ثم يقومون، بعد ذلك، بتوزيعها على أقاربهم، وهؤلاء يتولون، بدورهم، تأجير

الأرض للفلاحين لزارعتها. وكان في مقدور النبلاء، أن يعاملوا عامة الناس، كما يروق لهم، فيجبرونهم على القيام بأعمال بالقوة، أوقات السلام، أو يفرضون عليهم الضرائب، كما كانوا يلزمونهم بحمل السلاح وقت الحروب. كما كانت هناك تفرقة واضحة أيضًا أمام قانون العقوبات بين النبلاء والعامة، فإذا اقترف النبيل أي جريمة فإنه لا يمكن أن يقتل، ولكن إذا ثبتت إدانته في جريمة كبيرة كانوا يضطرونه لينتحر بيده. أما عامة الشعب فكانوا معرضين لأن يوقع عليهم العقاب الصارم سواءً في أشخاصهم أو في ممتلكاتهم.

يؤكد هذه التفرقة، أيضًا، بين النبلاء والعامة، أحد الأمثال التي كانت شائعة في ذلك العهد، حيث يقول:

" إن الشعائر الدينية لا تنزل إلى مستوى الشعب، كما أن قانون العقوبات لا يرتفع إلى مستوى النبلاء " (١)

وقد شهدت الصين ابتداءً من عام ٧٢٢ ق. م . حتى عام ٢٠٦ قبل الميلاد، أي مع بداية حكم أسرة "هان"، تغيرات جوهرية، أهمها انهيار النظام الإقطاعي الذي فتح الباب واسعًا أمام الكثير من عامة الشعب، ممن يتمتعون

---

(١) راجع: رالف لنتون: شجرة الحضارة ٣٢٩/٣

بالثقافة العالية والخلق القويم، لتولي الكثير من الوظائف الإدارية الهامة. وبلغت هذه التغيرات ذروتها على يد الإمبراطور " وو – تي " (١٤٠ – ٨٧ ق. م) بإنشائه نظام الاختيار عند الالتحاق بوظائف الدولة. ومما عجَّل أيضًا، بانهيار النظام الإقطاعي، وطغيان الفوضى على النظام الطبقي، تزايد القوة الاقتصادية لكل من الفلاحين، أرقاء الأرض والتجار.

وكانت غاية كونفوشيوس هي إصلاح المجتمع الصيني بعد أن استشرى فيه الفساد والانحلال، وطغت عليه المشاحنات الداخلية بين الممالك الصغيرة، وسادته القسوة والعنف والفوضى. ومن هنا هب لمناصرة النظم والتقاليد القديمة التي كانت سائدة في الأسرات السابقة على عصره وعلى رأس هذه النظم النظام الطبقي، الذي تميَّز بوجود تقاليد وعادات محددة لكل طبقة من الطبقات والفئات المكونة له، كما كان لكل طبقة حقوق وعليها واجبات، كما تميز هذا النظام، أيضًا، بوجود طقوس وشعائر وقرابين تختلف قليلاً أو كثيرًا من طبقة إلى أخرى، بل وصل الأمر إلى وجود زي خاص لكل منها. لقد كان هدف كونفوشيوس من دعوته

إلى إحياء النظام الطبقي القديم، هو أن يحدد لكل فـرد فـي المجتمع الدور الذي ينبغـي عليـه القيـام بـه، ووضـعه الاجتماعي ومركزه الأدبي، تحديدًا دقيقًا، إنقاذًا لـبلاده مـن حالة الفوضى، ووصولاً بها إلى النظام والاستقرار والتقـدم والرخاء.

ولكن علينا أن نلاحظ أن النظام الطبقي الـذي سـاد الصين يختلف اختلافًا بيِّنًا عن النظام الطبقي الـذي عرفتـه بعض الشعوب القديمة كاليونان والهند على سبيل المثال، بل لازالت بعض جهات الهند متمسكة به حتى العصور الحديثة. ففي الوقت الذي يعترف فيه النظام الكونفوشـي بالطبقـات، إلا أن الطبقات عنده لم تكن في حالة جمود، وبهذا أعطـى الكثير من الفرص للأفراد من أبناء العامة أصحاب المواهب العقلية والطبيعية والأخلاقية، للوصول إلـى طبقـة النـبلاء وتولي أرقى المناصب في البلاد. أما النظام الطبقـي، فـي اليونان والهند مثلاً، فقد اتصف بالجمود والانغلاق، وأبـرز التمايز بين الطبقات بحيث يبقى الملاح ملاحًا ولا يتحول إلى

قاضي، والاسكافي إسكافيًا، والزارع زارعًا، والكاهن كاهنًا وهكذا[1].

كما تمايزت الطبقات في هذه الشعوب القديمة بأن لكل منها دينها الخاص بها وآلهتها التي تميزها عن الطبقات الأخرى وعاداتها وتقاليدها وثقافتها الخاصة بها [2]

ويشبه نظام كونفوشيوس الطبقي النظم الديمقراطية الحديثة التي ترفض نظام الطبقات الجامد المنغلق وتقول، عوضًا عنه، بالنظام الطبقي المفتوح. ففي الوقت الذي تساوي فيه هذه النظم بين الناس أمام القانون، إلا أنها تقر بانقسامهم إلى طبقات تقوم على مراكزهم الاجتماعية وعلى ما يتمتعون به من مواهب عقلية، وصفات أخلاقية عالية. ولعل هذا هو نفس الحال الذي كانت عليه الطبقات في أيام كونفوشيوس، إذ رفض أي نوع من أنواع التسوية بين الذكي والغبي أو الصالح والطالح أو المثقف والجاهل، حتى لا يحرم أحد من جني ثمار أعماله، وليهيئ بذلك للمواهب

---

(١) راجع أفلاطون: الجمهورية ٤١٤ – ٤١٥

(٢) راجع: د. حسن سعفان: أسس علم الاجتماع، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٥٥.

العقلية والأخلاقية أن تتبوأ المكان اللائق بها في المجتمع. فلابد، إذن، في رأي كونفوشيوس، من الاعتراف بالطبقات الاجتماعية، إذ يحتم العدل، كما أشرنا، ألا نضع جميع الأفراد في منزلة أو مكانة واحدة. وإذا كان القانون الأخلاقي يوجب علينا العدل والرحمة والأريحية والشفقة والإحسان دون تفرقة بين فرد وآخر أو بين مواطن وأجنبي، إلا أنه يوجب علينا أيضًا أن ننزل كل فرد منزلته الحقيقية، وأن نضعه في المركز الاجتماعي الذي يتفق مع قدراته الذهنية ومواهبه الأخلاقية وعمله الناجح بل وحسبه ونسبه. ومما قاله كونفوشيوس في هذا المعنى:

" إن تعظيم هؤلاء الذين هم أحق منا بالتقدير لهو أسمى تعبير عن معنى العدل. ذلك أن الدرجات الشرفية النسبية التي نخلعها على من هم أجدر منا، هي أساس ظهور الفوارق في الحياة الاجتماعية، وأساس النظام الاجتماعي. وذلك لأن الفوارق الاجتماعية بين الناس إن لم تكن قائمة على أسس أخلاقية سليمة، فإن من المستحيل على

الناس أن يكونوا حكومة أو أن يتمكنوا من أن يسوسوا أمورهم [1].

ويقول كونفوشيوس أيضًا:" وعلى ذلك فإن من يتميز بالصفات الأخلاقية العظيمة سينال بكل تأكيد المكان السامي الذي يليق بهذه الصفات، كما سينال الرخاء المناسب لأخلاقه... لأن الله إذ وهب الحياة لمخلوقاته لا شك يهب هذه المخلوقات من النعم ما يتناسب مع صفاتها. فهو ينمي الشجرة الممتلئة بالحيوية، على حين أنه يطيح بتلك التي قد تطور الفساد إليها.. وعلى ذلك فإن من تحلى بالصفات الخلقية لا شك يتلقى التفويض الإلهي للتاج الإمبراطوري "[2]

يتضح مما سبق أن معيار أهلية الفرد في النظام الكونفوشي هي كفايته الأخلاقية وصفاته الذهنية وعمله النافع وقدرته على إسعاد المحيطين به.

وقد احترم كونفوشيوس الملكية الفردية، ورأى فيها حقًا من حقوق أفراد المجتمع ووصل تقديسه للملكية الفردية

---

(١) كتاب الطقوس، الفصل ٣١.

(٢) كتاب الطقوس.

إلى الحد الذي اعتبرها المعنى الأول للعدل، بل زاد على ذلك أن ساوى، في كثير من الأحيان، بين العدل واحترام الملكية، ومن هنا فإن الاعتداء على الملكية يشكل جريمة كبرى من جرائم المجتمع. وليس بدعًا أن تقوم الكونفوشيوسية، من بعد ذلك، بمحاربة الداعين إلى الاشتراكية والشيوعية في القرنين السابقين على الميلاد، وتنتصر عليهم انتصارًا ساحقًا.

ولكن كونفوشيوس رفض، من ناحية أخرى، أن تتركز الملكية أو الثروة في أيدٍ معدودة، وأنكر أن يصبح للمالك السلطان المطلق فيما يملك بغير أي قيد عليه، فيؤدي ذلك إلى التصارع بين الأفراد، وتشتيت الشعب، فالتضخم غير الطبيعي في الملكية، تترتب عليه دائمًا آثار فاسدة. من أجل ذلك وتحاشيًا لهذه الآثار المدمرة، دعا كونفوشيوس إلى ضرورة توزيع الثروة في أوسع نطاق لأن: " تركيز الثروة هو السبيل إلى تشتيت الشعب، وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته".

وعلى ذلك، فالمجتمع الفاضل في رأيه، هو ذلك المجتمع الذي يرفض أن ترتكز الملكية الفردية فيه إلى غير العمل، كما يرفض أن تكون الثروة عن غير هذا الطريق.

فالسبيل إلى إنتاج الثروة، إذن، هو العمل، ثم إن الذين ينتجون الثروة، في هذا المجتمع، يكرهون أن يستمتعوا بها دون غيرهم من الناس، كما أنهم لا يبتغون من عملهم منفعتهم الشخصية أو سعادتهم الذاتية دون سعادة الآخرين. وبهذه الطريقة يحد من تضخم الثروة في المجتمع، ويتحقق التكافل الاجتماعي بين الناس جميعًا، وتغمرهم روح العطف والشفقة، وينعم الشيوخ والأرامل والأيتام والعجزة بالحياة المطمئنة الكريمة.

وقد عاشت الصين، فيما يرى ذلك كونفوشيوس، هذا العصر الذهبي في أيام الأسرات الثلاث الأولى التي سبقت عصره، فعمَّ الوفاق والخير والطمأنينة والسلام جميع الأفراد الذين نظروا إلى بعضهم على أنهم أفراد أسرة واحدة، ونتج عن ذلك اختفاء اللصوص وقطاع الطرق يقول كونفوشيوس:

"وفي مثل هذا المجتمع، كان الشيوخ يقضون مدة شيخوختهم في سعادة ومتعة، وكانت الفرصة مهيأة أمام الشبان لإظهار مواهبهم، كما كان الشبان اليافعون الأصحاء يقومون بواجب العناية بالشيوخ والأرامل والأيتام والعجزة، وهي الفئات الاجتماعية التي لا حول لها ولا قوة. ولقد ساد

في هذا العصر تقسيم عادل للعمل، فلكل رجل حرفته المخصصة له بحيث لا يتعدى على اختصاص الآخرين، وللمرأة المنزل وما يتعلق به من شئون. وإذا كان الأفراد في تلك العصور قد قاموا بجمع الثروات، فإن هذا الجمع لم يكن يتم لحسابهم الخاص، كما أن نتيجة عملهم وجدهم لم تكن لهم كأفراد، بل كانت للمجموع. وعلى ذلك لم يكن ثمة مكان للنصب والاحتيال، ولا مكان للعصابات واللصوص، بل لم يكن صاحب المنزل بحاجة إلى إحكام غلق منزله ليلاً. كان ذلك عصر الثروة المشتركة العظيمة، أي عصر القانون الأسمى. أما الآن – " أي في الأسرة الرابعة وهي أسرة (تشو) التي كان كونفوشيوس يعيش تحت حكمها" – فإن هذا القانون الأسمى لم يعد له وجود، فالعالم، ويقصد به هنا الصين، الآن قد انقسم إلى أسر خاصة، وأصبح الناس لا يعترفون بصلة القربى إلا بالنسبة لوالديهم وأولادهم. وكل فرد يعمل ليجمع الثروة لحسابه الخاص ولمتعته الشخصية. ونتج عن ذلك تكوين أرستقراطية وراثية، كما

بدأت الولايات المختلفة في إنشاء مدن وقرى على حدودها لكي تخصصها للدفاع عن نفسها " [1]

وإذا كان فكر كونفوشيوس، في مرحلته الأولى، قد غلبت عليه التصورات المثالية، وهي التصورات المعروفة باسم اليوتوبيا Utopoia – وهي كلمة مشتقة من كلمتين يونانيتين هما: " Ou " بمعنى " لا " و " Topos " بمعنى مكان، بحيث تعني الكلمتان: اللامكان أو المكان الخالي- إذ عمد في هذه المرحلة، التي امتلأ فيها عصره بالفوضى والظلم الصارخ، إلى تخيل وجود مجتمع نموذجي تسوده المساواة المطلقة بين الأفراد، ويعمه الخير والسعادة. وبهذا المجتمع المثالي الذي تخيله كونفوشيوس نموذجًا للكمال، انضم إلى مجموعة المفكرين الخياليين الذين رسموا صورًا للمجتمع المثالي الذي يسوده الخير والفضيلة، بعيدًا عن الواقع الإنساني الملموس، وأشهرهم أفلاطون (المتوفى عام ٣٤٧ ق.م) في جمهوريته قديمًا. والفارابي (المتوفى عام ٩٥٠ م) في مدينته الفاضلة، وكامبا نيللا في مدينة الشمس، في العصر الوسيط. وتوماس مور

---

(١) راجع: كتاب التغيرات، وكتاب المنتخبات (الحوار)

(المتوفى عام ١٥٣٥ م) في يوتوبياه ، وفرنسيس بيكون (المتوفى عام ١٦٢٦ م) في أطلنطس الجديدة، وكانط (المتوفى عام ١٨٥٤ م) في السلام الدائم، في العصر الحديث. و هـ. ج. ولز (المتوفى عام ١٩٤٦ م) في يوتوبياه الحديثة في زمننا المعاصر.

إلا أن كونفوشيوس سرعان ما تخلى عن هذه النظرة المثالية، بعد أن تبين أن مدينته المثالية تجافي الطبيعة الإنسانية، وتفترض وجود صفات وسمات لا تتوافر في هذه الطبيعة بالفعل، وبدأ في اعتناق النظرة الواقعية التي جعل أساسها الطبيعة الإنسانية وقدراتها الفعلية والمجتمع الإنساني ومشكلاته الجوهرية.

ويبدو أن السبب الذي دفعه إلى تصور المجتمع المثالي هو ضيقه بالواقع الذي امتلأ بالمصائب والشرور، ومن هنا كانت محاولته، تجاوز هذا الواقع الأليم إلى تصوير ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع الإنساني، حتى تقترب منه النظم والأفكار قدر المستطاع.

تقويم الأسماء أو التعريف عند كونفوشيوس

لكونفوشيوس نظرية جد طريفة هي نظرية " تقـويم أو تدقيق الأسماء "، وتقتضي هذه النظريـة أن يحقـق كـل موجود غايته التي خلق من أجلها، وأن يلزم مكانه. وبمقدار حظ كل موجود من تحقيق غايته يكون حظه من الاسم الذي يطلق عليه، فإذا أجاد هذا الموجود في أداء دوره، فإن ذلـك يقوي من مركزه الثابت. فالحـاكم الـذي يـؤدي واجبـات وظيفته، ويحقق الرفاهية والسعادة لشعبه، هو وحـده الـذي يمكن أن يسمى حاكمًا، فإذا قصَّر في ذلك، وأخطأه التوفيق، أصبح لا من حق الشعب فحسب، بل من واجبه أن ينحيه من عمله، ويسلبه صفة الحاكم، وأن يبحث عن شـخص آخـر ليتولى وظيفة الحكم.

ولما كانت رفاهية الدولة في الصين، تعتمـد علـى رضا السماء، فإن فشل الإمبراطور أو الملك ابن السماء، في القيام بواجبات وظيفته، تتسبب عنه سلسلة من الاضطرابات والمصائب التي تلحق بالشعب، وعلى العكس من ذلك فـإن

أهلية خلفه في تولي الحكم، وحقه في هذا المنصب، يظهر في حسن أدائه لدوره ونجاحه في القضاء على الفوضى والفقر، وإعادة النظام والخير والرفاهية. وكذلك الحال في بقية فئات الشعب، كالعمال والزراع والصناع، بمقدار حظهم من تحقيق غاياتهم يكون حظهم من الاسم الذي يطلق عليهم. فإذا عجزوا عن تحقيق غاياتهم، افتقدوا أسماءهم. فالأسماء عنده، ليست مجرد تمثيل لأشياء، بل إنها صميم ماهيات الأشياء ذاتها.

لقد عرف عن كونفوشيوس حبه للتدقيق؛ لذلك وجه كل جهوده إلى توضيح الأدوار والوظائف الاجتماعية المختلفة، وشدَّد على ضرورة التزام كل مخلوق حدوده حسب عمله ومكانته في المجتمع ، وذلك بأن يتبوأ الملك المركز الخليق به، ولا يتجاوز النبلاء والوزراء حدود أعمالهم واختصاصاتهم، ويجب على الرعية أن تسلك مسلك الرعية، والوالد مسلك الوالد والزوجة مسلك الزوجة، والابن مسلك الابن. فإذا ما كذب الفرد على اللقب الذي يحمله، وتقاعس عن تحقيق الغاية التي خلق من أجلها، اضطربت الأمور كلها، وعمت الفوضى وسادت الشرور المجتمع. فانتظام

أمور الدولة واستقامة شئونها، مرهون بقيام كل مخلوق بأداء واجبه في الحياة، وبأن تتطابق أسماء الأشياء مع مسمياتها. وفي ذلك يقول:

" وإذا لم تكن الأسماء صحيحة، لا يوافق الكلام حقائق الأشياء، وإذا لم يوافق الكلام حقائق الأشياء لا تتم الأمور، وإذا لم تتم الأمور لا تزدهر الآداب والموسيقى، وإذا لم تزدهر الآداب والموسيقى لا تنزل العقوبات على من يستحقها، وإذا لم تنزل العقوبات على من يستحقها لا يعرف الرعية كيف يحركون أيديهم وأرجلهم ولذلك يعتبر الرجل الكامل الخلق ضروريًا أن توافق الأسماء مسمياتها حتى يمكنه أن يتكلم بها، وأن يعمل بما يتكلم، والرجل الكامل الخلق لا يتهامل في كلامه " (١)

وبهذا يتضح أنه لا يوجد أحد أكثر من كونفوشيوس استطاع التدليل على أهمية سلوك الكائنات فيما يتعلق بالتعبير عن جوهرها ومصيرها، لضرورة المحافظة على أسمائها، وضرورة وضع صفاتها الصحيحة واحترامها، ويرى أن هذا

---

(١) كونفوشيوس: كتاب الحوار ١٢٢/١٣

هو من أهم وظائف العاهل، وأنه أساس كل عدل وحقيقة [1].

وبناءً على ما سبق ينبغي إعطاء الكلمات معناها الدقيق، بحيث تتطابق الأسماء مع الواقع تطابقًا دقيقًا، وينتفي الخلط والالتباس، وتظهر الحقائق واضحة جلية. فلكي تصبح اللغة وسيلة للتواصل بين الناس، والتعبير عن أغراضهم، يجب أن يكون المعنى واضحًا في الكلمة، وواضحًا في الجملة، وأن يقدم في غير إبهام في الكلام. وفي ذلك يقول كونفوشيوس: [2]

" لا يطلب من الكلام إلا الدلالة على المعنى المقصود"

ولكن الناس يخونون الكلام دومًا؛ ولذا تكف الكلمات عن الدلالة على معناها، ويفترق الوجود عن الكلام.

إن الكارثة تصيب كل شيء، عندما يصاب الكلام بالفوضى " فعندما تكون الكلمات (تسميات، تصورات) غير

---

(١) بول ماسون – أورسيل: الفلسفة في الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف بمصر ١٩٤٧ م ص ١٨٩

(٢) كتاب الحوار: ١٥/١٥٧

دقيقة، وتكون الأحكام غير واضحة، والآثار غير خصيبة، والعقوبات في غير محلها، يتعذر على الشعب أن يعرف أيان هو من الأمور " (١)

ويرى كونفوشيوس أن الحاكم النبيل الصالح، باعتباره الرجل الأوحد من الوجهة النظرية، هو الذي يتخير الكلمات على نحو لا يدع أي مجال للخلط أو اللبس، وهو الذي يضع الأسماء في تناسب حسب مطابقتها للأشياء، ويصدر أحكامه على نحو يمكن من ترجمتها، دون تردد، إلى أعمال، ولا يطيق أدنى عدم دقة في خطاباته. فإذا كانت التسميات صحيحة، استطاع كل فرد القيام بواجبه، وسار كل شيء في الدولة سيرًا منتظمًا.

وقد تطورت نظرية "تقويم الأسماء"، المنطلقة من منطلق أخلاقي والمتجهة صوب هدف عملي إلى عمل متواصل، وإلى جهد دءوب، لتعريف المصطلحات، وتحليلها بغية التوصل إلى فهم دقيق لمعانيها.

ولا يخفى على باحث مدقق أن تمييز معاني الألفاظ أو تحديد الكلمات أو التعريف، من أهم الموضوعات اللغوية

---

(١) كارل ياسبرس: فلاسفة إنسانيون، ص ١٥٤ و ١٥٥.

المنطقية " بل الفلسفة في جوهرها بناء من تعريفات أو قل هي وصف للطريقة التي تتم بها صياغات التعريف" (١)

ولا شك أن هناك تشابهًا بين دعوة كونفوشيوس لنا بضرورة استعمال الكلمات استعمالاً صحيحًا، وتحديد مدلولاتها تحديدًا دقيقًا بحيث لا توقع الأسماء على غير مسمياتها، وبين مطالبة كثير من مفكري العصر الحديث أمثال (رسل) و (فتجنشتين) اللذان يذهبان إلى القول بأن مصدر الشرور والمصائب الاجتماعية، إنما يتمثل في الاستخدام غير الدقيق للكلمات، وعدم إعطائها معناها الدقيق الواضح. وفي ذلك يقول (برتراند رسل):

" والمطلب الأول الذي يجب أن يتحقق في اللغة المثالية، هو أن يكون هناك اسم واحد لكل شيء بسيط، بحيث لا يشير نفس الاسم لشيئين بسيطين مختلفين. فالاسم رمز

---

(١) Ramsey, F.P.: The Foundations of mathematics P.٢٦٣

بسيط بمعنى أنه لا يتكون من أجـزاء تكـون هـي نفسـها رموزًا"[1]

ويرى " فتجنشتين ": أن الاستخدام الصحيح للكلمـة هو الذي يعطي لها معنى، من ذلك: إنني إذا قلت: " أعطني السكر "، وقلت: " أعطني اللبن "، لوجدنا أن كل عبارة مـن العبارتين السابقتين لها معنى، أما إذا قلت " لبن سكر " فـإن ذلك لا يكون له معنى. [2]

وهكذا فعلى الإنسان أن يستخدم الكلمـات بطريقـة صحيحة وإلا أصبحت العبارة التي فيها هذه الكلمات خاليـة من المعنى.

ويرى " هنرى بر " أن الكلمة ذات المعنى الواضـح المحدد بقيمتها التصويرية، وقدرتها على الإفهام، لها نفـس المزايا التي للورق النقدي، ولكنها محفوفة مثله بالأخطـار،

---

(١) من مقدمة " برتراند رسل " لكتاب فتجنشـتين: رسـالة منطقيـة فلسفية، ترجمة الدكتور عزمي إسلام، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨، ص ٣٣.

(٢) Wittgenstein.L.: Philosophical investigations. Part I sec. ٤٩٨. P. ١٣٨

بمعنى أنها إن كانت خالية من الحقيقة صارت مجرد " أنفاس صوتية " أي خيالاً باطلاً [1]

---

(١) فندريس (ج): اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، ص ٦

تأثيره ومذهبه الإنساني

حققت أفكار كونفوشيوس وتعاليمه، بعد موته عام ٤٧٩ قبل الميلاد، نجاحًا كبيرًا فاق كل التوقعات المتواضعة التي كان يتوقعها مؤسسها، واستطاعت هذه الأفكار والتعاليم أن تسيطر على الشعب الصيني وتشكل فكره الأخلاقي والديني والسياسي والتربوي أكثر من خمسة وعشرين قرنًا، منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى العصور الحديثة والمعاصرة" ذلك أن كفايات معلمها الأكبر ظلت جيلاً بعد جيل النصوص المقررة في مدارس الدولة الصينية يكاد كل صبي يتخرج في تلك المدارس أن يحفظها عن ظهر قلب، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التي يمتاز بها الحكيم القديم في قلوب الصينيين، وسرت في دمائهم، وأكسبت أفراد الأمة الصينية كرامة وعمقًا في التفكير لا نظير لهما في غير تاريخهم أو غير بلادهم، واستطاعت الصين بفضل هذه الفلسفة أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متألقة، وأن تبعث في نفوس أبنائها إعجابًا شديدًا بالعلم والحكمة، وأن تنشر في بلادها ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها وتسترد قواها بعد الغزوات

المتكررة التي اجتاحت بلادها، وأن تشكل هي الغزاة على صورتها وتطبعهم بطابعها"[1]

يضاف إلى ما سبق، أن الكونفوشيوسية نجحت نجاحًا كبيرًا في تحويل ما جبلت عليه الطبيعة الإنسانية من غلظة ووحشية إلى تأدب ورقة.

لقد كان لكونفوشيوس دور بالغ الأهمية والفعالية في خلق المدنية الصينية، إذ أعلى من شأن القيم الأخلاقية والفكرية، وأظهر بغضه للخواء الفكري والبهتان، وربط الاستقامة بالمعرفة، وأقام قواعد الأسرة على الأسس الفلسفية الواضحة. وهو الذي أنشأ نظام الحكم الكامل الذي يحقق للبشرية السعادة والرفاهية وليس هذا فحسب بل هو الذي حوّل التاريخ إلى علم راقٍ يرقى إلى مصاف العلوم الأخرى عند الأمم المتحضرة، ومن هنا كان تميز العقلية الصينية بأنها عقلية تاريخية قل أن نجد لها نظيرًا عند الشعوب الأخرى. كما يُعَدُّ كونفوشيوس أول من مهَّد الطريق للتفكير المنطقي السليم للذين أتوا بعده، ممن كان لهم دور كبير في

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٦٧/٤

تحويل المنطق إلى علم جدير بالاحترام والتقدير من خلال دراساتهم المتعمقة.

إن الكونفوشيوسية تمثل، بحق، جوهر الثقافة الصينية واستطاع تراثها الروحي والفكري أن يهيمن على أذهان الشعب الصيني، منذ أن أقر الجميع بقوة هذا التراث إبان القرن الثاني الميلادي حتى زماننا المعاصر، كما استطاع هذا التراث أن يصمد أمام مختلف التيارات الفكرية الأخرى، لاسيما التاوية والبوذية، التي لم تستطع أن تسيطر على العقلية الصينية وكان تأثيرها عليها وقتيًا.

ولم يقتصر تأثير فكر كونفوشيوس الطاغي على الصين وحدها، بل شمل الهند الصينية واليابان وكوريا، وامتد هذا التأثير حتى وصل إلى أوربا الغربية نفسها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث لعبت " حكمة " كونفوشيوس دورًا في القضاء على التعصب الديني والحروب الناجمة عنه التي أجهدت الأوربيين، كما أدت هذه " الحكمة " إلى تطوير مفاهيم المساواة الإنسانية والديمقراطية السياسية في الغرب، الذي كان يبحث دائمًا عن الثقافة الإنسانية المتوازنة.

والفكر الكونفوشي فكر إنساني بمعنى الكلمة، إذ يعد كونفوشيوس من أوائل المفكرين الإنسانيين الذين أعرضوا عن الاهتمام بالمشكلات الميتافزيقية خاصة ما يتعلق بالسماء والآلهة والكائنات غير المنظورة، واتخذ عوضًا عن ذلك الإنسان وأعماله محورًا لهذا الفكر بما يؤكد قيمة هذا الإنسان، وأهمية شئونه الدنيوية.

وأساس تعاليمه ألا يحاول الإنسان الوصول إلى تحقيق ما يتمناه من تقدم وسعادة بالاعتماد على أية قوة علوية غير منظورة، بل يشترط أن يتم ذلك عن طريق ذاته فحسب، بضبطها ومراقبتها، ومحاولة تكميلها علميًا وأخلاقيًا، إذ إن المعرفة المستنيرة هي وسيلة الحياة الإنسانية السعيدة. ثم إن الإنسان، عنده، لا يكون إنسانًا إلا بالاضطلاع بنصيبه من المسئولية بالنسبة إلى حال المجتمع. ففكره، إذن فكر إنساني يقوم أولاً وبالذات على دراسة الإنسان، وفهم طبيعة المجتمع البشري الذي يحيا فيه بما يفيد أن كل شيء عنده يجري في اتجاه الطبيعة الإنسانية، وينصب دائمًا على المجتمع البشري. ومن هنا يصبح المثل الأعلى عنده قائمًا في تحرير الإنسانية من مشاكلها، وتخليصها من آلامها؛ لكي

تتوافر لها، من بعد ذلك الحياة السعيدة الهانئة، عن طريق تحلي أفراد المجتمع بالفضائل والمعرفة، وسيادة الـ (لي Li) آداب اللياقة أو السلوك الإنساني الحميد الشعب كله.

هذه النزعة الإنسانية مكَّنت مذهب كونفوشيوس من الانتصار على المذاهب الأخرى القائمة على الخرافات والتنجيم والعرافة والزهد والانسحاب من الحياة؛ ومن ثم برهنت فلسفته على أنها فلسفة أكثر " إنسانية " وأكثر " طبيعية " وتجانسًا وانسجامًا من أي فلسفة أخرى، وأنها ستدوم أكثر من أي معتقد آخر يسعى إلى الهيمنة على أذهان الشعب الصيني، الذي هو أكثر تمسكًا بالأخلاق؛ لأنه كونفوشيوسي قبل كل شيء، وسيظل في جوهره كونفوشيوسيًا.

المراجع

- **أورسيل (بول ماسون)**: الفلسفة في الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف بمصر ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م.
- **بارندر (جفري)**: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة (العدد ١٧٣) الكويت ١٩٩٣.
- **توملين (أ. و.ف)**: فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحميد سليم ومراجعة علي أدهم، دار المعارف بمصر ١٩٨٠.
- **حسن شحاته سعفان (أ.د.)**: كونفوشيوس، النبي الصيني، مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦.
- **ديورانت (ول)**: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر ١٩٦٦.
- **عبد الرحمن بدوي (أ.د.)** : منطق أرسطو، الترجمات العربية القديمة، دار المطبوعات بالكويت ١٩٨٠.
- **فؤاد محمد شبل**: حكمة الصين، دار المعارف بمصر، الجزء الأول ١٩٦٧.
- **كريل (هـ. ج)**: الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي - تونج، ترجمة عبد الحميد سليم ومراجعة علي أدهم، الهيئة العامة المصرية للتأليف بمصر ١٩٧١.

- **كونفوشيوس**: كتاب الحوار، نقله إلى اللغة العربية عن اللغة الصينية مباشرة الأستاذ محمد مكين (الصيني الأصل)، المطبعة السلفية بمصر ١٣٥٤هـ.
- **لنتون (رالف)**: شجرة الحضارة، تقديم محمد سويدي، دار موفم للنشر بالجزائر جـ ٣ عام ١٩٩٠.
- **لاوتسي**: الطريق إلى الفضيلة، ترجمة عبد الغفار مكاوي ومراجعة مصطفى ماهر، مؤسسة سجل العرب بمصر ١٩٦٧.
- **ويدجري (آلبان . ج)**: التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٢.
- **ياسبرز (كارل)**: فلاسفة إنسانيون، ترجمة د. عادل العوا، منشورات عويدات لبنان، الطبعة الأولى ١٩٧٥م
- **Chan, Wing, Isit:** A source Book in Chinese philosophy, New Jersey, Princeton University Press, ١٩٦٣.
- **Ch'u Chai & Winberg Cha**; Confucianism, Barron's Educational Series, N.Y, ١٩٧٣.
- **Creel, H.G.** : Confucius, The Man and the Myth, London, Routledge- Kegan paul L td., ١٩٥١.
- **Dawson, Raymond:** Confucius, Oxford university Press, ١٩٨١.

- **Fung Yu- Lan:** A history of Chinese Philosophy, translated by Derk Boode, Princeton Uinv., Pr., Princeton ١٩٥٢- ٥٣.
- **Fung Yu- Lan:** The Spirit of Chinese Philosophy, translated by E.R. Hughes. K. Paul, London, ١٩٤٧
- **Giles, H.A.:** the Civilization of China, H. Holt & Co., N.y. ١٩١١
- **John K. Fairbank, (Ed.):** Chinese Thought and Institutions, Chicago Univ. Pr., Chicago, ١٩٥٧.
- **Jurie, I. (Ed.):** The Great Religions of the Modern World, N. J. Princeton Univ. Press, Princeton, ١٩٤٧
- **Legge, James (Trans.):** Religions of China, N.Y., Charles Scribner's Sons, ١٨٨١.
- **Liang Chi- Chao:** Chinese Political Thought, English Trans., L.T. Chen, K. Paul, London, ١٩٣٠.
- **Yutang, Lin:** The Wisdom of Confucius, The illustrated modern liberary, N.Y. ١٩٣٨.
- **Weber, Max:** The Religion of China: Confucianism, and Taoism, Coller Macmillan Limited, London, ١٩٥١
- **Wright, Arthur F.:** Confucianism and Chinese Civilization, California, Stanford Univ. Pr. ١٩٥٩

- **Wright, Arthur F. (Ed.):** Studies in Chinese Thought, Menasha. Chicago, ١٩٥٣.
- **Zenker, E.V.,:** Histoire de la Philosophie Chinoise , Payot, Paris, ١٩٣٢